الفصل الأول

أهم الأحداث التاريخية من قبل البعثة حتى نزول الوحي

المبحث الأول

الحضارات السائدة قبل البعثة وديانتها

أولاً: الإمبراطورية الرومانية:

كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، فكانت تحكم دول اليونان، والبلقان، وآسيا وسورية وفلسطين، وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر، وكل إفريقية الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولة ظالمة، مارست الظلم والجور، والتعسف على الشعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضرائب، وكثرت الاضطرابات والثورات، وكانت حياتهم العامة قائمة على كل أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف.

أما مصر فكانت عرضة للاضطهاد الديني، والاستبداد السياسي، واتخذها البيزنطيون شاة حلوبًا يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأما سورية فقد كثرت فيها المظالم والرقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشعب إلا على القوة، والقهر الشديد. وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يشعر بأن عطف على الشعب المحكوم، وكثيرًا ما كان السوريون يبيعون أبناءهم، ليوفوا ما كان عليهم من ديون[1].

كان المجتمع الروماني مملوءًا بالتناقض والاضطراب، وقد جاء تصويره في كتاب «الحضارة ماضيها وحاضرها» كالآتي:

«كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاغل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب، والطرب والترف، فقد كانت هناك ميادين رياضية

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣١، ٣٢) بتصرف.

واسعة، تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجال والسباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق، ولون أخضر، لقد كانوا يحبون الجمال، ويعشقون العنف والهمجية، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقوبتهم فظيعة تقشعر منها الجلود، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائدة، والقبائح والعادات السيئة»[١].

ثانيًا: الإمبراطورية الفارسية:

كانت الإمبراطورية الفارسية تعرف بالدولة الفارسية أو الكسروية، وهي أكبر وأعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة، كالزرادشتية، والمانيَّة التي أسسها مانِي في أوائل القرن الثالث الميلادي، ثم ظهرت المزْدَكِية، في أوائل القرن الخامس الميلادي التي دعت إلى الإباحية في كل شيء، مما أدى إلى انتشار ثورات الفلاحين، وازدياد النهابين للقصور، فكانوا يقبضون أو يأسرون النساء، ويستولون على الأملاك والعقارات، فأصبحت الأرض والمزارع والدور كأن لم تسكن من قبل.

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة، ويضعون أنفسهم فوق بني آدم؛ لأنهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة، وأصبحت موارد البلاد ملكًا لهؤلاء الملوك، يتصرفون فيها ببذخ لا يتصور، ويعيشون عيش البهائم، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم، أو دخلوا الأديرة والمعابد فرارًا من الضرائب، والخدمة العسكرية، وكانوا وقودًا حقيرًا في حروب طاحنة مدمرة، قامت في فترات من التاريخ، دامت سنين طوالاً بين الفرس والروم، لا مصلحة للشعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ورغبات الملوك[٢].

ثالثًا: الهند:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة، وخلقًا واجتماعًا، وسياسة، ذلك العهد الذي يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادي، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد، لأن الدين أعطاها لونًا من القدس والتعبد، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، وكان ذلك تابعًا لقانون مدني سياسي ديني، وضعه المشرعون الهنديون، الذين كانت لهم صفة دينية، وأصبح هو القانون العام في المجتمع، ودستور حياتهم، وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطاحنة، وكانت بعيدة عن أحداث عالمها في عزلة واضحة يسيطر عليها التزمت، والتطرف في العادات والتقاليد، والتفاوت الطبقي، والتعصب الدموي والسلالي، وقد تحدث مؤرخ هندوكي ـ أستاذ

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣١) بتصرف.

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٢، ٣٣) بتصرف.

التاريخ في إحدى جامعات الهند ـ عن عصر سابق لدخول الإسلام في الهند فقال: «كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا، منطوين على أنفسهم، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالمية، وهذا الجهل أضعف موقفهم، فنشأ فيهم الجمود، وعمّت فيهم أمارات الانحطاط والتدهور. كان الأدب في هذه الفترة بلا روح، وهكذا كان الشأن في الفن المعماري، والتصوير، والفنون الجميلة الأخرى»[١].

و«كان المجتمع الهندي راكدًا جامدًا، كان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات، وتمييز معيب بين أسرة وأسرة، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى، ويشددون على أنفسهم في أمور الطعام والشراب، أما المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ومدينتهم»[٢].

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

١ ـ طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم «البراهمة».

٢ ـ ورجال الحرب والجندية، وهم «شترى».

٣ ـ ورجال الفلاحة والتجارة، وهم «ويش».

٤ ـ ورجال الخدمة وهم «شودر»، وهم أحط الطبقات، فقد خلقهم خالق الكون ـ في زعمهم الجاهلي ـ من أرجله، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزًا ومكانة، لا يشاركهم فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال. أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً، أو يدخروا كنزًا، أو يجالسوا برهميًا، أو يمسوه بيدهم، أو يتعلّموا الكتب المقدسة[٣].

رابعًا: أحوال العالم الدينية قبل البعثة المحمدية:

كانت الإنسانية، قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم، تعيش مرحلة من أحط مراحل التاريخ البشري، في شؤونها الدينية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، وتعاني من فوضى عامة في جميع شؤون حياتها؛ وهيمن المنهج الجاهلي على العقائد والأفكار، والتصورات والنفوس، وأصبح الجهل والهوى، والانحلال والفجور، والتجبر والتعسف، من أبرز ملامح المنهج الجاهلي المهيمن على دنيا الناس[٤].

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨).

(٢) المصدر نفسه (ص ٣٩).

(٣) راجع القانون المدني الاجتماعي المسمى (منو شاسنز) الأبواب ١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠. نقلاً عن السيرة النبوية للندوي (ص ٣٨).

(٤) انظر: الغرباء الأولون، سلمان العودة (ص ٥٧).

وضاع تأثير الديانات السماوية على الحياة ـ أو كاد ـ بسبب ما أصابها من التبديل والتحريف، والتغيير الذي جعلها تفقد أهميتها، باعتبارها رسالة الله إلى خلقه. وانشغل أهلها بالصراعات العقدية النظرية، التي كان سببها دخول الأفكار البشرية، والتصورات الفاسدة على هذه الأديان، حتى أدى إلى الحروب الطاحنة بينهم، ومن بقي منهم لم يحرف ولم يبدل قليل نادر، وآثر الابتعاد عن دنيا الناس، ودخل في حياة الخلوة والعزلة، طمعًا في النجاة بنفسه، يأسًا من الإصلاح. ووصل الفساد إلى جميع الأصناف والأجناس البشرية، ودخل في جميع المجالات بلا استثناء، ففي الجانب الديني تجد الناس إما أن ارتدوا عن الدين، أو خرجوا منه، أو لم يدخلوا فيه أصلاً، أو وقعوا في تحريف الديانات السماوية، وتبديلها. أما في الجانب التشريعي، فإن الناس نبذوا شريعة الله وراءهم ظِهريًا، واخترعوا من عند أنفسهم قوانين، وشرائع لم يأذن بها الله، تصطدم مع العقل وتختلف مع الفطرة.

وتَزَعَّم هذا الفساد زعماء الشعوب والأمم، من القادة، والرهبان، والقساوسة، والدَّهاقين، والملوك، وأصبح العالم في ظلام دامس، وليل بهيم، وانحراف عظيم عن منهج الله، سبحانه وتعالى.

فاليهودية: أصبحت مجموعة من الطقوس والتقاليد، لا روح فيها، ولا حياة. وتأثرت بعقائد الأمم التي جاورتها، واحتكت بها، والتي وقعت تحت سيطرتها، فأخذت كثيرًا من عاداتها، وتقاليدها الوثنية الجاهلية. وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود[١]، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان يدل على أن عبادة الأوثان والآلهة، كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد اعتقدوا معتقدات خرافية وشركية. إن التلمود أيضًا يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود»[٢].

إن المجتمع اليهودي قبل البعثة المحمدية قد وصل إلى الانحطاط العقلي، وفساد الذوق الديني، فإذا طالعت تلمود بابل، الذي يبالغ اليهود في تقديسه، والذي كان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي، تجد فيه نماذج غريبة من خفة العقل، وسخف القول، والاجتراء على الله، والعبث بالحقائق، والتلاعب بالدين والعقل[٣].

أما المسيحية: فقد امتحنت بتحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، واختفى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وراء السحب الكثيفة[٤]، واندلعت الحروب بين النصارى في الشام

(١) انظر السيرة النبوية ـ أبو الحسن الندوي (ص ٢٠).
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٠).
(٣) المصدر نفسه (ص ٢١).
(٤) المصدر نفسه (ص ٢١).

والعراق، وبين نصارى مصر حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت البيوت والمدارس والكنائس إلى معسكرات متنافسة، وظهرت الوثنية في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة، وألوان شتى، فقد جاء في تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر:

«لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية، وفي ستارها؛ فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم، أخذوا شهيدًا من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالاً، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقًا وسيطًا بين الله والإنسان، يحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزًا لقداسة القرون الوسطى، وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح»[١]. وجاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة: «تغلغل الاعتقاد بأن الإله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم، في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره، منذ ربع القرن الرابع الأخير، ودامت كعقيدة رسمية مُسلمة، عليها الاعتماد في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي»[٢].

لقد اندلعت الحروب بين النصارى، وكفر بعضهم بعضاً، وقتل بعضهم بعضاً، وانشغل النصارى ببعضهم عن محاربة الفساد وإصلاح الحال، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح البشرية[٣].

أما المجوس: فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية، أعظمها النار، وانتشرت بيوت النار في طول البلاد وعرضها، وعكفوا على عبادتها، وبنوا لها معابد وهياكل، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة داخل المعابد، أما خارجها فكان أتباعها أحرارًا، يسيرون على هواهم لا فرق بينهم وبين من لا دين له.

ويصف المؤرخ الدنماركي طبقة رؤساء الدين، ووظائفهم عند المجوس في كتابه (إيران في عهد الساسانيين) فيقول: «كان واجبًا على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة، عند النوم والانتباه، والاغتسال ولبس الزنار، والأكل والعطس، وحلق الشعر، وتقليم الأظفار،

---

(١) المصدر نفسه (ص ٢٣).

(٢) دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة، مقال التثليث (١٤/ ٣٩٥).

(٣) انظر: فتح العرب لمصر، تعريب محمد أبو حديد (ص ٣٧، ٣٨، ٤٨).

وقضاء الحاجة وإيقاد السرج، وكانوا مأمورين بألا يَدَعوا النار تنطفىء، وألا تمس النار والماء بعضها بعضًا، وألا يَدعوا المعدن يصدأ لأن المعادن عندهم مقدسة»[١].

وكان أهل إيران يستقبلون في صلاتهم النار، وقد حلف (يزدجرد) ـ آخر ملوك الساسانيين ـ بالشمس مرة، وقال: «أحلف بالشمس التي هي الإله الأكبر». وقد دان المجوس بالثنوية في كل عصر، وأصبح ذلك شعارًا لهم، فآمنوا بإلٰهين اثنين، أحدهما النور أو إلٰه الخير، والثاني الظلام أو إلٰه الشر[٢].

أما البوذية: في الهند وآسيا الوسطى فقد تحولت وثنية، تحمل معها الأصنام حيث سارت، وتبني الهياكل وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت[٣].

أما البَرْهَمِية: دين الهند الأصلي فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة، وقد بلغت أوجها في القرن السادس الميلادي، ولا شك أن الديانة الهندوكية والبوذية وثنيتان سواء بسواء، لقد كانت الدنيا المعمورة من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادي غارقة في الوثنية، وكأنما كانت المسيحية واليهودية والبوذية والبرهمية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة.

وقد أشار النبي ﷺ إلى عموم هذا الفساد لجميع الأجناس، وجميع المجالات بلا استثناء، فقد قال ﷺ ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أُعَلِّمَكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كلُّ مال نحلته[٤] عبدًا حلالٌ، وإني خلقت عبادي حنفاء[٥] كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم[٦]، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنْزِل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب»[٧].

والحديث يشير إلى انحراف البشرية في جوانب متعددة كالشرك بالله، ونبذ شريعته، وفساد المصلحين من حملة الأديان السماوية، وممالأتهم للقوم على ضلالهم[٨].

---

(١) إيران في عهد الساسانيين (ص ١٥٥)، نقلاً عن السيرة النبوية للندوي (ص ٢٧).
(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية، للندوي (ص ٢٨).
(٤) نَحلْته: أعطيته.
(٥) حنفاء: مائلين عن الشرك إلى التوحيد.
(٦) اجتالتهم: ذهبت بهم.
(٧) مسلم، كتاب الجنة، باب الصفات؛ ٤/ ٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥).
(٨) انظر: الغرباء الأولون (ص ٥٩).

المبحث الثاني

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام، بحسب السلالات التي انحدروا[١] منها:

١ ـ العرب البائدة:

وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالقة، وطَسْم، وجَديس، وأمَيْم، وجُرهم وحضرموت، ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها، واضمحلت من الوجود قبل الإسلام، وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر[٢].

٢ ـ العرب العاربة:

وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يَشْجُب بن قُحطان، وتسمى بالعرب القحطانية[٣]، ويعرفون بعرب الجنوب[٤]، ومنهم ملوك اليمن، ومملكة مَعين، وسبأ حِمْيَر[٥].

٣ ـ العرب العدنانية:

نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربيًّا، ثم تم اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد.

وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجراهمة الذين تعلم منهم إسماعيل عليه السلام العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عربًا مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي ﷺ الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطونها، فقد جاء بعد عدنان ابنه مَعَدّ، ثم نزار، ثم جاء بعده والداه مُضَر وربيعة.

أما ربيعة بن نزار فقد نزل من انحدر من صلبه شرقًا، فقامت عبد القيس في البحرين، وحنيفة في اليمامة، وبنو بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تَغْلب الفرات، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة[٦].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان (ص ٤٥).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٦).

(٣) فقه السيرة، للغضبان (ص ٤٥).

(٤) مدخل لفهم السيرة (ص ٩٨).

(٥) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٧).

(٦) مدخل لفهم السيرة (ص ٩٨، ٩٩).

أما فرع مضر: فقد نزلت سليم بالقرب من المدينة، وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازِن شرقي مكة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذُبيان وعَبس من تيماء إلى حوران[١]. وتقسيم العرب إلى عدنانية وقحطانية هو ما عليه جمهرة علماء الأنساب، وغيرهم من العلماء. ومن العلماء من يرى أن العرب: عدنانية، وقحطانية ينتسبون إلى إسماعيل عليه السلام[٢].

وقد ترجم البخاري في صحيحه لذلك فقال: باب نسبة اليمن إلى إسماعيل عليه السلام، وذكر في ذلك حديثاً عن سلمة قال: خرج رسول الله ﷺ على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق، فقال: «ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً، وأنا مع بني فلان» ـ لأحد الفريقين ـ، فأمسكوا بأيديهم، فقال «ما لهم»؟ قالوا: وكيف نرمي وأنت مع بني فلان؟ فقال: «ارموا وأنا معكم كلكم»[٣].

قال البخاري: وأسلم بن أفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر من خزاعة، يعني: أن خزاعة فرقة ممن كان تمزق من قبائل سبأ، حين أرسل الله عليهم سيل العرم[٤].

وَوُلد الرسول ﷺ من مُضر، وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي ﷺ زينب بنت أبي سلمة قال: «قلت لها: أرأيت النبي ﷺ أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة»[٥].

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. وانقسمت قريش إلى قبائل شتى؛ من أشهرها: جمح، وسهم، وعدي، ومخزوم، وتيم، وزُهرة. وبطون قُصي بن كلاب، وهي: عبد الدار بن قصي، وأسد بن عبد العزى بن قصى، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم.. وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم[٦]:

قال ﷺ: «إن الله اصطفى كنانةَ من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٧].

---

(١) انظر: الطريق إلى المدائن، عادل كمال (ص ٤٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٤٨).

(٣) البخاري، كتاب المناقب (٣٥٠٧).

(٤) انظر السيرة النبوية، لأبي شهدة (١/ ٤٨).

(٥) البخاري، كتاب المناقب (٣٤٩١).

(٦) انظر: فقه السيرة النبوية، للغضبان (ص ٤٧).

(٧) رواه مسلم، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٦).

ثانيًا: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:

١ ـ حضارة سبأ باليمن:

وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار، والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتنحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذ السدود (سد مأرب)، واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال عز شأنه:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبإ: الآيات ١٥ ـ ١٧].

ودل القرآن الكريم على وجود قرى متصلة في الزمن الماضي ما بين اليمن، إلى بلاد الحجاز، إلى بلاد الشام، وأن قوافل التجارة والمسافرين كانوا يخرجون من اليمن إلى بلاد الشام، فلا يعدمون ظلا، ولا ماء، ولا طعاماً. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبإ: الآيتان ١٨، ١٩].

٢ـ حضارة عاد بالأحقاف:

وكانوا في شمال حضرموت، وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هودًا عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون[1]، قال تعالى:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: الآيات ١٢٣ ـ ١٣٤].

حضارة ثمود بالحجاز:

دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحِجْر، وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٥٠).

من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون وبساتين وزروع[١]، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: الآيات ١٤١ ـ ١٥٠].

وقال فيهم أيضًا:

﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: الآية ٧٤].

لقد زال كل ذلك من زمن طويل، ولم يبق إلا آثار، ورسوم وأطلال، فقد اضمحلت القرى والمدن، وخربت الدور والقصور، ونضبت العيون، وجفت الأشجار، وأصبحت البساتين والزروع أرضًا جُرُزًا[٢].

المبحث الثالث

الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

أولاً: الحالة الدينية:

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخيفة لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم، وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية، أو الرومانية. وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد، واتباع ما كانوا عليه، مهما يكن فيه من الزيغ والانحراف والضلال، ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهُذَيل بن مُدْرِكة: سواع، ولكلب: وَدّ، وَلِمَذْحِج: يغوث، ولخَيْوان: يعوق، وَلِحِمْيَر: نَسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافًا ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة، والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في ثقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش[٣].

وإلى جانب هذه الأصنام الرئيسية يوجد عدد لا يحصى كثرةً من الأصنام الصغيرة، والتي يسهل نقلها في أسفارهم ووضعها في بيوتهم.

---

(١) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٥١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: الغرباء الأولون (ص ٦٠).

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العُطارِدي، قال: «كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخيرُ منه، ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به!!»[١].

وقد حالت هذه الوثنية السخيفة بين العرب، وبين معرفة الله وتعظيمه وتوقيره، والإيمان به وباليوم الآخر، وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائط بينهم وبين الله. وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم، وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم، وضعف توقير الله في نفوسهم، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: الآية ٣٦].

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام، فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسمًا للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة، وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها، وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير.

وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأنصاب، ولا يأكل الميتة والدم، وكان يقول:

أربًّا واحدًا أم ألفَ رب؟؟ أدين إذَا تُقُسِّمَت الأمورُ؟
عزلتُ اللات والعزى جميعًا كذلك يفعل الجَلْد الصبورُ
فلا العزى أدينُ ولا ابنتيها ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولا غنمًا[٢] أدينُ وكان ربًّا لنا في الدهر، إذْ حِلْمِي يسيرُ

إلى أن قال:

ولكنْ أعبدُ الرحمٰن ربي ليغفر ذنبي الربُّ الغفور[٣].

وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام قُسّ بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيبًا، حكيمًا، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بَشَّر بالنبي ﷺ، فقد روى أبو نُعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «إن قُسْ بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه - وأشار بيده إلى مكة - قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول

(١) البخاري، كتاب المغازي - وفد بني حنيفة (٥/ ١١٩ ورقمه ٤٣٧٧).
(٢) وفي كتاب الأصنام لابن الكلبي: «هُبَلاً»، انظر: السيرة النبوية لابن هشام (ق ١/ ٢٢٦هـ ٤).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ١٦٣).

من يسعى إليه» وقد أدرك النبيَّ ﷺ ومات قبل البعثة[١].

ومما كان ينشده من شعره:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائرْ
لما رأيت مَوَارِدًا ... للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأكابر والأصاغرْ
لا يرجع الماضي إليَّ ... ولا من الباقين غابرْ
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائرْ[٢]

كان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

ثانيًا: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كمملكة اليمن في الجنوب ومملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة.

والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب)، ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي، ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي[٣].

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية، وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، و(الصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة، و(النشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء، و(الفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا ... وحكمك، والنشيطة، والفضول[٤]

ومقابل هذه الحقوق واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة (١/ ٨٠).

(٢) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨١). دلائل النبوة للبيهقي ـ تحقيق د. عبد المعطي قلعجي (٢/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٦٠).

(٤) انظر: مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول (ص ١٣).

الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات.

والنظام القبلي تسود فيه الحرية، فقد نشأ العربي في جو طليق، وفي بيئة طليقة، ومن ثم كانت الحرية من أخص خصائص العرب، ويعشقونها ويأبون الضيم والذل، وكل فرد في القبيلة ينتصر لها، ويشيد بمفاخرها، وأيامها، وينتصر لكل أفرادها، محقًّا أو مبطلاً، حتى صار من مبادئهم:

(انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)

وكان شعارهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

والفرد في القبيلة تبع للجماعة، وقد بلغ من اعتزازهم برأي الجماعة أنه قد تذوب شخصيته في شخصيتها، قال دريد بن الصِمّة:

وهل أنا إلا من غزيَّة إن غَوَتْ غويتُ، وإن ترشد غزية أرشد[١]

وكانت كل قبيلة من القبائل العربية لها شخصيتها السياسية، وهي بهذه الشخصية كانت تعقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، وبهذه الشخصية أيضًا كانت تشن الحرب عليها، ولعل من أشهر الأحلاف التي عقدت بين القبائل العربية: حلف الفضول، (حلف المطيبين)[٢].

وكانت الحروب بين القبائل على قدم وساق، ومن أشهر هذه الحروب حرب الفِجار[٣]، وكان ـ عدا هذه الحروب الكبرى ـ تقع إغارات فردية بين القبائل، تكون أسبابها شخصية أحيانًا، أو طلبَ العيش أحيانًا أخرى، إذ كان رزق بعض القبائل في كثير من الأحيان في حدِّ سيوفها، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن أن تنقض عليها قبيلة أخرى، في ساعة من ليلٍ أو نهار، لتسلب أنعامها ومؤنها، وتدع ديارها خاوية كأن لم تسكن بالأمس[٤].

ثالثًا: الحالة الاقتصادية:

تغلب على الجزيرة العربية الصحارى الواسعة الممتدة، وهذا ما جعلها تخلو من الزراعة، إلا في أطرافها، وخاصة في اليمن والشام، وبعض الواحات المنتشرة في الجزيرة، وكان يغلب على البادية رعي الإبل والغنم، وكانت تنتقل القبائل بحثًا عن مواقع الكلأ، وكانوا لا يعرفون الاستقرار إلا في مضارب خيامهم.

وأما الصناعة فكانوا أبعد الأمم عنها، وكانوا يأنفون منها، ويتركون العمل فيها للأعاجم والموالي، حتى عندما أرادوا بنيان الكعبة استعانوا برجل قبطي نجا من السفينة التي غرقت

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٦١).

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، د. محمد قلعجي (ص ٣١).

(٣) المصدر نفسه، ص (٣٣ـ ٣٥).

(٤) المصدر السابق (ص ٣٥).

بِجُدَّة، ثم أصبح مقيمًا في مكة[١].

وإذا كانت الجزيرة العربية قد حُرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقية وشرق آسيا؛ جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزًا متقدمًا في التجارة الدولية آنذاك.

وكان الذين يمارسون التجارة من سكان الجزيرة العربية هم أهل المدن، ولا سيما أهل مكة، فقد كان لهم مركز ممتاز في التجارة، وكان لهم بحكم كونهم أهل الحرم منزلة في نفوس العرب، فلا يعرضون لهم ولا لتجارتهم بسوء، وقد امتن الله عليهم بذلك في القرآن الكريم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٦٧]. وكانت لقريش رحلتان عظيمتان شهيرتان: رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، يذهبون فيها آمنين، بينما الناس يتخطفون من حولهم، هذا عدا الرحلات الأخرى التي يقومون بها طوال العام، قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ① إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ③ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ﴾ [سورة قريش].

وكانت القوافل تحمل الطيب والبخور، والصمغ، واللبان، والتوابل، والتمور، والروائح العطرية، والأخشاب الزكية، والعاج، والأبنوس، والخرز، والجلود، والبرود اليمنية، والأنسجة الحريرية، والأسلحة وغيرها مما يوجد في شبه الجزيرة، أو يكون مستوردًا من خارجها، ثم تذهب به إلى الشام وغيرها، ثم تعود محملة بالقمح، والحبوب، والزبيب، والزيتون، والمنسوجات الشامية وغيرها.

واشتهر اليمنيون بالتجارة، وكان نشاطهم في البر، وفي البحار، فسافروا إلى سواحل إفريقية وإلى الهند، وإندونيسيا، وسومطرة، وغيرها من بلاد آسيا وجزر المحيط الهندي، أو البحر العربي كما يُسمَّى، وقد كان لهم فضل كبير بعد اعتناقهم الإسلام في نشره في هذه الأقطار.

وكان التعامل بالربا منتشرًا في الجزيرة العربية، ولعل هذا الداء الوبيل سرى إلى العرب من اليهود[٢]، وكان يتعامل به الأشراف وغيرهم، وكانت نسبة الربا في بعض الأحيان أكثر من مائة في المائة[٣].

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنّة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنّة بعد

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية، منير الغضبان (ص ٦٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٨- ١٠١).

(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ١٩).

مضي عشرين يومًا من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز، فلبثوا فيها ثمانيَ ليال، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة، ولا أيام منى، حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٩٨].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دَرَست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقًا للأدب، والشعر والخطابة، يجتمع فيها فحول الشعراء، ومصاقع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية[١].

رابعًا: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها، والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

١ ـ الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك، وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى، والعمل الصالح.

٢ ـ الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نَجَمَ فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

٣ ـ المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها، من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يَعْضلها عن النكاح، حتى حَرَّم الإسلام ذلك. وكان الابن يتزوج امرأة أبيه[٢]، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: الآية ٢٢].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ١٠٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨٧).

وكانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد، كالخالات والعمات[١].

وكانوا لا يورثون البنات، ولا النساء، ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة، وقاتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفًا معمولاً به عندهم، إلى أن توفي أوس بن ثابت ـ في عهد رسول الله ﷺ ـ وترك بنتين، كانت بهما دمامة، وابنًا صغيرًا، فجاء ابنا عمه ـ وهما عصبته ـ فأخذا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأتت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس، وترك ابنًا صغيرًا وابنتين، فجاء ابنا عمه، سويد وعرفطة، فأخذا ميراثه، فقلت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا. فقال ﷺ: «لا تحركا من الميراث شيئاً»[٢] ونزل قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النّساء: الآية ٧].

وكان العرب يعيرون بالبنات، لأن البنت لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سُبيت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احتراف البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله ـ وقد كانت العرب تبيح ذلك ـ وقد كان هذا يورث الهمَّ والحزن، والخجل للأب، عندما تولد له بنت. وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النّحل: ٥٨، ٥٩].

وكثيرًا ما كانوا يختارون دسها في التراب، ووأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى[٣]، ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر، أو خشية الفقر، فجاء الإسلام وحرّم ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١].

---

(١) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٢٢ـ ٢٤).

(٢) تفسير القرطبي (٥/ ٤٥).

(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، ص (٢٥، ٢٦).

وكانت بعض القبائل لا تئد البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل[١].

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفترش لغير زوجها وحليلها، وكانت تتسم بالشجاعة، وتتبع المحاربين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف، وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف[٢].

٤ ـ النكاح:

تعارف العرب على أنواع من النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فَيُصدِقُها، ثم يَنكحها. ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طَهُرت من طمثها[٣]: أرسلي إلى فلان فاستبضعي[٤] منه، ويعتزلها زوجها، ولا يمسها أبداً، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع. ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها، أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع، حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيَلحَق به ولدُها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل. ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن البغايا، كن يَنصبن على أبوابهن رايات تكون عَلَمًا، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن، ووضعت حملها، جُمِعوا لها، ودعوا لهم القَافَة[٥]، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط[٦] به، ودُعي ابنَه، لا يمتنع من ذلك. فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كلَّه إلا نكاح الناس اليوم»[٧].

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨٨).

(٣) الطمث: الحيض.

(٤) استبضعي: الاستبضاع، طلب الجماع حتى تحمل منه.

(٥) القافة: جمع القائف وهو الذي يعرف شبه الولد بالوالد.

(٦) التاط به: استلحقه.

(٧) البخاري، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي (رقم ٥١٢٧).

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى، لم تذكرها عائشة ـ رضي الله عنها ـ كنكاح الخدن، وهو في قوله تعالى: ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥]. كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة، وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البدل: «كان البدل في الجاهلية أن يقول للرجل: انزل لي عن امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي، وأزيدك»[(١)].

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار، وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق[(٢)].

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقيد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العد[(٣)]، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن، حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقًا ما كن يحلمن بها[(٤)].

٥ ـ الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدًا، وبقي هذا الأمر معمولاً به في صدر الإسلام[(٥)] إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٢٩].

فقيد الإسلام عدد الطلقات، وأعطى للزوج فرصة ليتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ٢٣٠].

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنتِ عليّ كظهر أمي، وكان تحريمًا مؤبدًا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزورٌ، وجعل

---

(١) فتح الباري (٩/ ١٥٠) ذكره ابن حجر عن الدارقطني عن أبي هريرة فانظره.

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٠).

(٣) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٢٤، ٢٥).

(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٨٨).

(٥) دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٢٥).

للزوج مخرجًا منه، وذلك بالكفارة[١] قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ [المجادلة: الآيتان: ٣، ٤].

٦ ـ الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يبالون بشن الحروب، وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية، التي تعارفوا عليها، وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية، مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب، وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البَسوس. وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب، بسبب ناقة للجَرْمي وهو جار للبسوس بنت منقذ، خالة جَسّاس بن مُرَّة، وقد كان كليب سيد تَغْلب قد حَمَى لإبله مكانًا خاصًّا به، فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي، وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جَسّاس تحين الفرصة لقتل كُلَيب فقتله، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة[٢].

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقًا أقيم بين داحس، وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي فإن رأى داحسًا قد سبق يرده، وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل، والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذُبيان[٣].

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وهم أبناء عم حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، واستمرت الحروب بينهم، وكان آخر أيامهم (بُعاث)، وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصرة، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود، حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة، واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، وكانت نهايته لمصلحة الأوس[٤].

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير، بغية نهب الأموال، وسبى الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة، فقد كان عربيًّا حرًّا، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسيًّا حرًّا، وقد قضي الإسلام على ذلك، حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذئب

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ١/ ٩١).

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (١/ ٣١٢).

(٣) المصدر نفسه (١/ ٣٤٣).

(٤) التاريخ الإسلامي، د. عبد العزيز الحميدي (١/ ٥٥).

على أغنامها[١].

٧ ـ العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم، كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والأمية، والتقليد والجمود على القديم، وإن كان باطلاً، وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب، وهذه هي الصفة التي كانت غالبة عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ، ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم، فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفطنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاف الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد، ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة وكان فيهم أطباء، كالحارث بن كَلَدة، وكان طبهم مبنيًّا على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة[٢].

خامسًا: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت، وأولعوا بالخمر، والقمار، وشاعت فيهم الغارات، وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الرايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي ﷺ لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: «على أن لا يشركن بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يزنين» قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: «أوَتزني الحرة»[٣]؟!!

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا؛ لا، لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون، ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء، ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا[٤]، وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة، أهلتهم لحمل راية الإسلام، ومن تلك الخصال والسمات:

١ ـ الذكاء والفطنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير، والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية، واليونانية والفارسية، فكأن قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود، وهي دعوة الإسلام الخالدة، ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمايته، فكانت

---

(١) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٣).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٩٣).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٩٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٤).

قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة[١].

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسمًا، وللثعلب مائتان، وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفًا، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقادة[٢].

وقد بلغ بهم الذكاء والفطنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة[٣].

٢ ـ أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخلق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان، بل كان يطعم الوحش، والطير. وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال[٤].

٣ ـ أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتمادحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش، قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف.

وما مات منا سيد حتف أنفه ... ولا طُلَّ[٥] منا حيث كان قتيل
تسيل على حد الظُباة نفوسنا ... وليست على غير الظباة تسيل

وكان العرب لا يقدمون شيئًا على العز، وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم، قال عنترة:

بَكَرَت تخوفني الحُتوف كأنني ... أصبحت عن غَرض الحتوف بِمَعْزِلِ
فأجبتها إن المنية مَنهلٌ ... لا بد أن أُسقَى بكأس المنهل
فأَقْنِي حياءَك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أُقتلِ[٦]

وقال عنترة:

لا تسقني ماء الحياة بذلةٍ ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

---

(١) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ١٢).
(٢) بلوغ الأرب (١/ ٣٩ـ ٤٠).
(٣) انظر: مدخل لفقه السيرة (ص٧٩، ٨٠).
(٤) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٥).
(٥) الطَّلُّ: هدْر الدم، وقيل: هو أن لا يثأر به أو تُقْبَل دِيَتهُ.
(٦) ديوان عنترة، د. فاروق الطباع (ص٢٥٢).

مـاءُ الـحـيـاة بـذلـة كـجـهـنـم وجـهـنـمٌ بـالـعـز أطـيـب مـنـزلِ[١]

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة؛ فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة، أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه، ويرون من النذالة التخلي عمن لجأ إليهم.

٤ ـ عشقهم للحرية، وإباؤهم للضيم والذل:

كان العربي بفطرته يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ طليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه، ولو كلفه ذلك حياته[٢]، فقد كانوا يأنفون من الذل، ويأبون الضيم، والاستصغار والاحتقار. وإليك مثال على ذلك:

جلس عمرو بن هند ملك الحيرة لندمائه وسألهم: هل تعلمون أحدًا من العرب تأنف أمه خدمة أمي؟ قالوا: نعم، أم عمرو بن كلثوم الشاعر الصعلوك.

فدعا الملك عمرو بن كلثوم لزيارته ودعا أمه لتزور أمه، وقد اتفق الملك مع أمه أن تقول لأم عمرو بن كلثوم بعد الطعام: ناوليني الطبق الذي بجانبك، فلما جاءت، قالت لها ذلك، فقالت: لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها، فأعادت عليها الكرة وألحت، فصاحت ليلى أم عمرو بن كلثوم: واذُلاَّه يا لتَغْلِب... فسمعها ابنها فاشتد به الغضب، فرأى سيفًا للملك معلقًا بالرواق، فتناوله وضرب به رأس الملك عمرو بن هند، ونادى في بني تغلب، وانتهبوا مافي الرواق، ونظم قصيدة يخاطب بها الملك قائلاً:

بـأي مـشـيـئـة عـمـرو بـن هـنـد نـكـون لِقَـيْـلِكـم[٣] فـيـهـا قـطـيـنـا[٤]

بـأي مـشـيـئـة عـمـرو بـن هـنـد تـطـيـع بـنـا الـوشـاة وتـزدريـنـا

تـهـددنـا وتـوْعِـدنـا رويـدًا مـتـى كـنـا لأمـك مَـقْـتَـويـنـا[٥]

إذا مـا الـمـلـك سـام الـنـاس خـسـفـا أبـيـنـا أن نـقـر الـذل فـيـنـا[٦]

٥ ـ الوفاء بالعهد وحبهم للصراحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام.

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية، لأبي شهبة (١/ ٩٥).

(٣) القَيْل: هو الملك دون الملك الأعظم.

(٤) القطين: هم الخدم والمماليك.

(٥) مَقْتَوينا: المقْتَوُون: الخُدَّام.

(٦) انظر: شرح المعلقات للحسين الزوزني (ص ١٩٦، ٢٠٤).

ويدل على أنفتهم من الكذب، قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياءُ من أن يأثروا عليّ كذبًا لكذبت عنه»[١].

أما وفاؤهم فقد قال النعمان بن المنذر لكسرى في وفاء العرب: «فإن أحدهم يلحظ اللحظة، ويومىء الإيماء فهي وَلْثٌ[٢] وعقدة، لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عودًا من الأرض فيكون رهنًا بدينه، فلا يُغْلَق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائيًا عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته، أو تفنى قبيلته، لما أخفر من جواره، وأنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة، ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله»[٣].

والوفاء خلق متأصل بالعرب، فجاء الإسلام ووجهه الوجهة السليمة فغلظ على من آوى محدثًا، مهما كانت منزلته وقرابته. قال ﷺ «ولعن الله من آوى محدثًا»[٤]. ومن القصص الدالة على وفائهم[٥]: «أن الحارث بن عباد قاد قبائل بكر لقتال تغلب، وقائدهم المهلهل الذي قتل ولد الحارث، وقال: «بؤ بشسع نعل كليب» في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه، فقال: دلني على مهلهل بن ربيعة وأخلي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك، إن دللتك عليه، قال: نعم. قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه»، وهذا وفاء نادر، ورجولة تستحق الإكبار[٦]. ومن وفائهم: أن النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى، لما منعه من تزويج ابنته، فأودع أسلحته وحرمه إلى هانىء بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثم أرسل إلى هانىء يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسير إليه كسرى جيشًا لقتاله فجمع هانىء قومه آل بكر، وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبْر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد»[٧]، واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار، بسبب هذا الرجل الذي احتقر حياة الصغار والمهانة، ولم يبال بالموت في سبيل الوفاء بالعهود.

---

(١) البخاري، كتاب بدء الوحي (ح رقم ٧).
(٢) الوَلْث: الوعد الضعيف
(٣) بلوغ الأَرَب (١/ ١٤٩، ١٥٠).
(٤) رواه مسلم، كتاب الأضاحي (رقم ١٩٧٨).
(٥) انظر: مدخل لفهم السيرة ص (٩٠).
(٦) المصدر نفسه (ص ٩١).
(٧) تاريخ الطبري عن يوم ذي قار (٢/ ٢٠٧).

٦ ـ الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البِطنَة تُذْهِب الفطْنَة، ويَعيبون الرجل الأكول الجشع، قال شاعرهم:

إذا مُدت الأيدي إلى الزاد لم أكن   بأعجلهم إذ أجشَعُ القوم أَعْجَلُ[١].

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره، والصبر في الشدائد. وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ. ولما دخلوا الإِسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل، وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفيًا بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده[٢].

٧ ـ قوة البدن وعظمة النفس والعفو عند المقدرة وحماية الجار:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس، وقوة الروح، وإِذا اجتمعت البطولة النفسية إِلى البطولة الجسمانية صنعتا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإِسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إِذا تمكنوا منهم عفوا عنهم، وتركوهم، ويأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء، والمحافظة على العرض قال شاعرهم:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي   حتى يواري جارتي مأواها

وكانوا إِذا استجار أحد الناس بهم أجاروه، وربما ضحوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك.

كانت هذه الفضائل، والأخلاق الحميدة رصيدًا ضخمًا في نفوس العرب، فجاء الإِسلام فنماها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إِذا كانوا انطلقوا من الصحارى كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملأوها إِيمانًا بعد أن ملئت كفرًا، وعدلاً بعد أن ملئت جَوْرًا، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرًا بعد أن طفحت شرًّا[٣].

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإِنسان العربي، فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله ﷺ، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع، مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان، فلم يختر من الفرس على سعة علومهم

(١) بلوغ الإرب (١/ ٣٧٧).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٩٦، ٩٧).
(٣) المصدر السابق (١/ ٩٧).

ومعارفهم، ولا من الهنود على عمق فلسفاتهم، ولا من الرومان على تفننهم، ولا من اليونان على عبقرية شاعريتهم وخيالهم، وإنما اختير من هذه البيئة البكر، لأن هؤلاء الأقوام وإن كانوا على ما هم عليه، وماهم فيه من علوم ومعارف، إلا أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه العرب من سلامة الفطرة، وحرية الضمير، وسمو الروح[١].

المبحث الرابع

أهم الأحداث قبل مولد الحبيب المصطفى ﷺ

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشرية، ويكرم الإنسانية، فحان وقت الخلاص، بمبعث الحبيب ﷺ، وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم، ونشأته العزيزة، ورعاية الله له قبل نزول الوحي عليه، وسيرته العطرة قبل البعثة، نريد أن نتحدث عن الآيات العظيمة، والأحداث الجليلة التي سبقت ميلاده عليه الصلاة والسلام، فقد سبق مولده الكريم أمور عظيمة، دلت على اقتراب تباشير الصباح.

إن من سنن الله في الكون أن الانفراج يكون بعد الشدة، والضياء يكون بعد الظلام، واليسر بعد العسر[٢].

ومن أهم هذه الأحداث:

أولاً: قصة حفر عبد المطلب جد النبي ﷺ لزمزم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلى في كتابه القيم (صحيح السيرة النبوية) رواية صحيحة في قصة حفر عبد المطلب لزمزم، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر، إذ أتاني آت فقال لي: احفر طيبة[٣]، قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني.

قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برّة[٤]، قال: قلت: وما برة؟، قال: ثم ذهب عني.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة[٥]. قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب.

فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت:

---

(١) انظر: نظرات في السيرة للإمام حسن البنا (ص ١٤).

(٢) انظر: هذا الحبيب يا محب، للجزائري (ص ٥١).

(٣) طيبة: مشتقة من الطيب، وبه سميت المدينة.

(٤) برة: مشتقة من البر، والبر: هو الخير والطهارة.

(٥) المضنونة: الغالية النفيسة التي يضن بمثلها، أي يُبخل.

وما زمزم؟ قال: لا تَنْزِف[١] أبدًا ولا تُذَم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نُقرة الغراب الأعصم[٢]، عند قرية النمل[٣].

قال ابن إسحاق: فلما بُيِّن له شأنها، ودُلّ على موضعها، وعرف أنه صُدِق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذٍ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطَّيُّ[٤] كبَّر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خُصصت به دونكم، وأُعطيته من بينكم.

قالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه. قالوا: كاهنة بني سعد من هُذَيم، قال: نعم، وكانت بأشراف[٥] الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مفاوز، حتى إذا كانوا ببعضها، نفد ماء عبد المطلب وأصحابه، فعطشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة[٦] وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم. فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كلُّ رجل منكم حفرته لنفسه، بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحدًا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه. فقالوا: نِعمَ ما أمرت به.

فحفر كل رجل لنفسه حفرة، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشًا. ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا. فارتحلوا حتى إذا بعث[٧] عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبّر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش ـ وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال ـ فقال: هَلُمّوا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبدًا، إن الذي سقاك

---

(١) لا تنزف: أي لا يفرغ ماؤها ولا يلحق قعرها، ولا تُذَمّ: أي لا توجد قليلة الماء.

(٢) الغراب الأعصم: الذي في ساقيه بياض.

(٣) قرية النمل: المكان الذي يجتمع فيه النمل.

(٤) الطَّيُّ: حافة البئر.

(٥) أشراف الشام: ما ارتفع من أرضه.

(٦) المفازة: جمعها مفاوز: القفار.

(٧) بعث راحلته: أقامها من بروكها.

هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدًا فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخَلَّوا بينه وبين زمزم.

قال ابن إسحاق: فهذا ما بلغني عن علي بن أبي طالب في زمزم[١]، وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة؛ فمنها ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنها مباركةٌ، إنها طعامُ طُعْم»[٢].

وروى الدارقطني والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له؛ إن شربته لتستشفي شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وهي هزمة[٣] جبريل، وسقيا الله إسماعيل» قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله[٤]: ومهما يكن من شيء فقد صحح الحافظ الدمياطي ـ وهو من الحفاظ المتأخرين المتقنين ـ حديث: «ماء زمزم لما شرب له» وأقره الحافظ العراقي[٥].

ثانيًا: قصة أصحاب الفيل:

هذه الحادثة ثابتة بالقرآن الكريم والسنّة النبوية، وأتت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ، وذكرها المفسرون في كتبهم:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [سورة الفيل].

أما إشارات الرسول ﷺ إلى الحادث فمنها:

● أن الرسول ﷺ لما خرج زمن الحديبية سار حتى إذا كان بالثَّنِيَّة التي يهبط عليهم منها، بركت بها راحلته فقال الناس: حَلْ حَلْ[٦]، فألحت[٧]، فقالوا: خلأت القصواء! فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»[٨].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: (١/ ١٤٢ـ ١٤٥)، السير والمغازي لابن إسحاق (٢٤، ٢٥) تحقيق سهيل زكار، البيهقي في الدلائل (١/ ٩٣ـ ٩٥) وصرح ابن إسحاق بالتحديث فسنده صحيح، وله شاهد من مرسل الزهري، فالحديث صحيح من طريق البيهقي وابن هشام.

(٢) مسلم، فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، ورقمه [١٣٢ـ (٢٤٧٣)، (طعام طعم): أي تُشبع شاربها كما يُشبعه الطعام.

(٣) هزمة أو همزة: أثر ضربته في الأرض بعقبه، أو جناحه.

(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٨).

(٥) مقدمة ابن الصلاح وشرحها للحافظ العراقي (ص ١٣).

(٦) كلمة تقال للناقة إذا تركت السير (فتح الباري: ٥/ ٣٣٥).

(٧) ألحت: أي تمادت على عدم القيام وهو من الإلحاح، فتح الباري (٥/ ٣٣٥).

وجاء في السيرة النبوية لأبي حاتم، مايلي: «كان من شأن الفيل أن ملكًا كان باليمن غلب عليها، وكان أصله من الحبشة، يقال له أبرهة، بنى كنيسة بصنعاء فسماها القُلَّيْس وزعم أنه يصرف إليها حَج العرب، وحَلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها، فخرج ملك من ملوك حِمْيَر فيمن أطاعه من قومه، يُقال له ذو نفر فقاتله؛ فهزمه أبرهة وأخذه، فلما أُتي به، قال له ذو نَفَر: أيها الملك لا تقتلني فإن استبقائي خير لك من قتلي، فاستبقاه، وأوثقه، ثم خرج سائرًا يريد الكعبة، حتى إذا دنا من بلاد خَثْعَم، خرج إليه النُفيل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن، فقاتلوه فهزمهم وأخذ النفيل، فقال النفيل: أيها الملك، إني عالم بأرض العرب فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه وخرج معه يَدله، حتى إذا بلغ الطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجال ثقيف، فقال: أيها الملك نحن عبيد لك، ليس لك عندنا خلاف، وليس بيننا وبينك الذي تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه مَولى لهم يُقال له: أبو رغال، فخرج معهم حتى إذا كان بالمُغَمَّس[1] مات أبو رغال، وهو الذي رجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً، يقال له الأسود بن مقصود على مقدمة خيله، فجمع إليه أهل الحرم وصاب لعبد المطلب مائتي بعير بالأراك، ثم بعث أبرهة حُناطة الحِمْيَري إلى أهل مكة فقال: سل عن شريفها ثم أبلغه أني لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حناطة، حتى دخل مكة، فلقي عبد المطلب بن هاشم، فقال: إن الملك أرسلني إليك ليخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت، ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما عندنا له قتال، فقال: سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه فوالله مالنا به قوة، قال: فانطلق معي إليه، قال: فخرج معه حتى ـ قدم العسكر، وكان «ذو نفر» صديقًا لعبد المطلب، فأتاه فقال: يا ذا نفر هل عندكم من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بُكرة أو عشية، ولكن سأبعث لك إلى أُنَيس سائس الفيل فآمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويُعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فأتاه، فقال: إن هذا سيد قريش، صاحب عير مكة، الذي يُطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه، فإنه صديق لي. فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك، هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة، الذي يُطعم الناس في السهل، والوحوش في الجبال يستأذن عليك، وأنه أحب أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له، وكان عبد المطلب رجلاً عظيمًا جسيمًا وسيمًا،

---

(١) البخاري، كتاب الشروط (٥/ ٣٨٨ ورقمه ٢٧٣١).

(٢) المغمس: مكان قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال.

فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره، وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه معه، فقال له عبد المطلب: أيها الملك إنك قد أصبت فيّ مالاً عظيمًا فارددِه عليّ، فقال له: لقد أعجبتني حين رأيتك، ولقد زهدت فيك، قال: ولِمَ؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك، وعصمتكم ومنعتكم لأهدمه، فلم تُكلمني فيه، وتكلمني في مائتي بعير لك! قال: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، قال: ما كان ليمنعه مني، قال: فأنت وذاك، قال: فأمر بإبله فرُدت عليه، ثم خرج عبد المطلب وأخبر قريشًا الخبر، وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهيأ للدخول، وعبأ جيشه، وقرب فيله، وحمل عليه ما أراد أن يحمل، وهو قائم، فلما حركه وقف، وكاد أن يرزم إلى الأرض فيبرك، فضربوه بالمعول في رأسه فأبى فأدخلوا محاجن لهم تحت مَراقّه ومرافقه فأبى، فوجهوه إلى اليمن فهرول، فصرفوه إلى الحرم فوقف، ولحق الفيل بجبل من تلك الجبال فأرسل الله الطير من البحر كالبَلَسان[1] مع كل طير ثلاثة أحجار: حَجران في رجليه وحَجر في منقاره، ويحملن أمثال الحمص والعدس من الحجارة، فإذا غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تُصب تلك الحجارة أحدًا إلا هلك، وليس كل القوم أصيب، دلك قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [سورة الفيل] وبعث الله على أبرهة داءً في جسده، ورجعوا سراعًا يتساقطون في كل بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله، كلما سقطت أُنملة اتبعتها مدّة من قيح ودم، فانتهى إلى اليمن، وهو مثل فرخ الطير، فيمن بقي من أصحابه، ثم مات»[2].

وذكر ابن إسحاق ـ رحمه الله ـ في سيرته، كما نقله ابن هشام عنه في السير، أن عبد المطلب أخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلْقَة باب الكعبة:

لا هُمَّ إن العبد يمـ ... ـنع رحلة فامنع حِلالك
لا يغلبن صليبهم ... ومحالهم غَدْوًا محالك
إن كنت تاركهم وقبلـ ... ـتنا فأمرٌ ما بَدَا لك

ثم أرسل عبد المطلب حَلْقَة باب الكعبة، وانطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، وذكر بعد ذلك ما حدث من هلاك لأبرهة وجيشه[3].

---

(١) البَلَسان: الزرازير.

(٢) السيرة النبوية لأبي حاتم البستي (ص ٣٤ـ ٣٩)، وانظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠ـ ٣٧).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام مع شرح أبي ذر الخُشَني (١/ ٨٤ـ ٩١).

● **دروس وعبر وفوائد من حادثة الفيل:**

١ - **بيان شرف الكعبة، أول بيت وضع للناس**، وكيف أن مشركي العرب كانت تعظمه، وتقدسه، ولا يقدمون عليه شيئًا، وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

٢ - **حسد النصارى وحقدهم على مكة وعلى العرب** الذين يعظمون هذا البيت، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله، ببناء كنيسة القُلَّيس. وعلى الرغم من استعماله أساليب الترغيب والترهيب، إلا أن العرب امتنعوا، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيس أحد الأعراب، قال الرازي - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ [الفيل: الآية ٢] : اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية. (إن قيل) لِمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أن يهدم البيت؟ (قلنا) نعم، لكن الذي كان في قلبه شرًّا مما أظهر، لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم، بسبب الكعبة، منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته[١].

٣ - **التضحية في سبيل المقدسات**: قام ملك من ملوك حِمْيَر في وجه جيش إبرهة، ووقع الملك أسيرًا، وقام النفيل بن حبيب الخثعمي، ومن اجتمع معه من قبائل اليمن، فقاتلوا أبرهة، إلا أنهم انهزموا أمام الجيش العرمرم، وبذلوا دماءهم دفاعًا عن مقدساتهم.

إن الدفاع عن المقدسات والتضحية في سبيلها شيء غريزي في فطرة الإنسان.

٤ - **خونة الأمة مخذولون**: فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة، وصاروا عيونًا له وجواسيس، وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم الناس، ولعنهم الله ﷻ، وأصبح قبر أبي رغال رمزًا للخيانة والعمالة، وصار ذاك الرجل مبغوضًا في قلوب الناس، وكلما مر أحد على قبره رجمه.

٥ - **حقيقة المعركة بين الله وأعدائه**: في قولة عبد المطلب زعيم مكة: «سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة» هذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده، فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله، وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة، وسالبها في أي وقت شاء[٢].

قال القاسمي - رحمه الله - قال القاشاني - رحمه الله -: قصة أصحاب الفيل مشهورة، وواقعتهم قريبة من عهد الرسول ﷺ، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من سخطه على من اجترأ عليه بهتك حرمه.

---

(١) انظر: تفسير الرازي (٣٢/ ٩٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (١١٢).

٦ - **تعظيم الناس للبيت وأهله**: ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام، الذي تكفل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين[١]، وأعظمت العرب قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وكان ذلك آية من الله، ومقدمة لبعثة نبي يبعث من مكة، ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رفعة وشأن[٢].

٧ - **قصة الفيل من دلائل النبوة**: قال بعض العلماء إن حادثة الفيل من شواهد النبوة، ودلالاتها، ومن هؤلاء: الماوردي - رحمه الله -: آيات الملك باهرة، وشواهد النبوة ظاهرة، تشهد مبادئها بالعواقب، فلا يلتبس فيها كذب بصدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها. ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا، وأشهرها عيانًا وبيانًا: أصحاب الفيل.. إلى أن قال: وآية الرسول في قصة الفيل، أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة، لأنه ولد بعد خمسين يومًا من الفيل، وبعد موت أبيه في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت آية في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله أن يجري عليه السبي حملًا ووليدًا.

والثاني: أنه لم يكن لقريش من التأله ما يستحقونه به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب، لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة. ولكن لما أراد الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيسًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة.. ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل؛ تهيبوا الحرم وأعظموه، وزادت حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم، وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالرفادة والسدانة، والسقاية. والرفادة مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم، يصنعون به طعامًا للناس، أيام منى، فصاروا أئمة دَيّانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين[٣].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: «وكان ذلك عام مولد النبي ﷺ، وكان جيران البيت مشركين، يعبدون الأوثان، ودين النصارى خير منهم، فعلم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كان لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ، الذي ولد في ذلك العام عند البيت، أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته»[٤].

---

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (١٧/ ٢٦٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (١١٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية للندوي (٩٢).

(٤) انظر: أعلام النبوة للماوردي، (ص ٨٥- ١٨٩).

وقال ابن كثير - رحمه الله - عندما تحدث عن حادثة الفيل: «.. كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء»[١].

٨ - **حفظ الله للبيت العتيق**: وهي أن الله لم يقدر لأهل الكتاب (أبرهة وجنوده) أن يدمروا البيت الحرام، أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يُدنسه، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقًا من سلطان المتسلطين، مصونًا من كيد الكائدين، وليحفظ لهذه الأرض حريتها، حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حُرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يُهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان، وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه، قبل أن يَعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام[٢].

ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة، ترف حول الأماكن المقدسة من قبل الصليبية العالمية، والصهيونية العالمية، ولا تني أو تَهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة، فالله الذي حمى بيته من أهل الكتاب، وسدنتُه مشركون، سيحفظه إن شاء الله ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين، ومكر الماكرين[٣].

٩ - **جعل الحادثة تاريخًا للعرب**: استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأرخوا به، وقالوا: وقع هذا عام الفيل، وولد فلان عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م[٤].

المبحث الخامس

من المولد النبوي الكريم إلى حلف الفضول

أولاً: نسب النبي ﷺ:

إن النبي ﷺ أشرف الناس نسبًا، وأكملهم خَلْقًا وخُلُقًا، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم: أن النبي ﷺ قال: «إن الله ﷻ - اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»[٥].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٨، ٥٤٩).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١١٣).

(٣) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٨٠).

(٤) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص ٨٢).

(٥) مسلم كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢ رقم ٢٢٧٦).

وقد ذكر الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ نسب النبي ﷺ، فقال: «محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هشام، بن عبد مناف، بن قُصَيّ، بن كلاب، بن مُرة، بن كعب، بن لؤي، ابن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، بن كنانة، بن خُزيمة، بن مُدرِكة، بن إلياس، بن مُضَر، بن نِزار، بن مَعَدٍّ، بن عدنان»(١).

وقال البغوي في شرح السنة بعد ذكر النسب إلى عدنان: «ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان»(٢).

وقال ابن القيم: بعد ذكر النسب إلى عدنان أيضًا: «إلى هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»(٣).

وقد جاء عن ابن سعد في طبقاته: «الأمر عندنا الإمساك عما وراء عدنان إلى إسماعيل»(٤).

وعن عروة بن الزبير أنه قال: ما وجدنا من يعرف وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرصًا»(٥).

قال الذهبي رحمه الله: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بإجماع الناس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء»(٦).

«لقد كان ـ وما زال ـ شرف النسب له المكانة في النفوس، لأن ذا النسب الرفيع لا تُنْكر عليه الصدارة، نبوةً كانت أو مُلكًا، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولما كان محمد ﷺ يُعَدُّ للنبوة، هيأ الله تعالى له شرف النسب؛ ليكون مساعدًا له على التفاف الناس حوله»(٧).

إن معدن النبي ﷺ طيب ونفيس، فهو من نسل إسماعيل الذبيح، وإبراهيم خليل الله، واستجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وبشارة أخيه عيسى عليه السلام، كما حدّث هو عن نفسه، فقال: «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى»(٨).

---

(١) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي ﷺ (٤/ ٢٨٨ عقب ترجمة الباب).
(٢) شرح السنة (١٣/ ١٩٣).
(٣) زاد المعاد (١/ ٧١).
(٤) ابن سعد (١/ ٥٨).
(٥) المصدر السابق.
(٦) السيرة النبوية للذهبي (ص ١).
(٧) انظر دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ٩٦).
(٨) انظر: الحاكم (٢/ ٦٠٠) وصححه الحاكم والذهبي.

وطيب المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفساف الأمور، ويجعله يهتم بمعاليها وفضائلها، والرسل والدعاة يحرصون على تزكية أنسابهم، وظهر أصلابهم، ويعرفون عند الناس بذلك، فيحمدونهم ويثقون بهم(١).

ومما تبين يتضح لنا من نسبه الشريف دلالة واضحة على أن الله ﷻ ميّز العرب على سائر الناس، وفضل قريشًا على سائر القبائل الأخرى، ومقتضى محبة رسول الله ﷺ، محبة القوم الذين ظهر فيهم، والقبيلة التي ولد فيها، لا من حيث الأفراد والجنس، بل من حيث الحقيقة المجردة؛ ذلك لأن الحقيقة العربية القرشية، قد شرف كل منها ـ ولا ريب ـ بانتساب رسول الله ﷺ إليها، ولا ينافي ذلك ما يلحق من سوء بكل من قد انحرف من العرب أو القرشيين عن صراط الله ﷻ، وانحط عن مستوى الكرامة الإسلامية، التي اختارها الله لعباده، لأن هذا الانحراف أو الانحطاط؛ من شأنه أن يُودِيَ بما كان من نسبة بينه وبين الرسول ﷺ ويلغيها من الاعتبار(٢).

ثانيًا: زواج عبد الله بن عبد المطلب من آمنة بنت وهب، ورؤيا آمنة أم النبي ﷺ:

كان عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح، وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوّجه من أشرف نساء مكة نسبًا، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب(٣).

ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به ﷺ آمنة، ودفن أبوه بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار)، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام، فأدركته منيته بالمدينة، وهو راجع، وترك هذه النَسَمَة المباركة، وكأن القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة. وهذا الجنين الطاهر يتولى الله ﷻ بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه، وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور.

ولم يكن زواج عبد الله من آمنة هو بداية أمر النبي ﷺ، قيل للنبي ﷺ: ما كان أول بدء أمرك(٤): فقال رسول الله ﷺ: «دعوةَ أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»(٥).

ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠٢).

(٢) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص٤٥).

(٣) انظر: وقفات تربوية مع السيرة، أحمد فريد (ص ٤٦).

(٤) المصدر نفسه (ص ٤٦).

(٥) رواه أحمد (٥/ ٢٦٢ ورقمه ٢٢٢٦١)، وقال محققو طبعة مؤسسة الرسالة: صحيح لغيره)؛ الحاكم (٢/ ٦٠٠)، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٢) وقال: إسناد أحمد حسن، وله شواهد تقويه.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩] .

وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله ﷻ حاكيًا عن المسيح عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦] .

وقوله: «ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام» قال ابن رجب: «وخروج هذا النور عند وضعه، إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۗ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المَائدة: الآيتان ١٥، ١٦] .

وقال ابن كثير: «وتخصيص الشام بظهور نوره، إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم بدمشق، بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام»[(١)].

ثالثًا: ميلاد الحبيب المصطفى ﷺ:

ولد الحبيب المصطفى ﷺ يوم الاثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[(٢)].

والمجمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل[(٣)]، وكانت ولادته في دار أبي طالب، بشعب بني هاشم[(٤)].

قال أحمد شوقي رحمه الله في مولد الحبيب المصطفى ﷺ:

ولد الهدى فالكائنات ضياءُ ... وفم الزمان تبسُّم وثناء
الروح، والملأ، الملائك حوله ... للدين والدنيا به بشراء
والعرش يزهو، والحظيرة تزدهي ... والمنتهى والسّدرة العصماء

* * *

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٨٤)، رواه البخاري، كتاب المناقب ـ باب ٢٨ـ رقم (٣٦٤١).
(٢) انظر: صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص٤٧).
(٣) انظر: السيرة النبوية، لابن كثير (١/ ٢٠٣).
(٤) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٤٧).

بـك بـشّـر الله الـسـمـاء فَـزُيِّـنَـتْ وتـضـوّعـت مِـسْـكًـا بـك الـغـبـراء

* * *

يـوم يـتـيـه عـلـى الـزمـان صـبـاحـه ومـسـاؤه بـمـحـمـد وضـاء

* * *

ذُعـرتْ عـروش الـظـالـمـيـن فـزلـزلـت وعـلـت عـلـى تـيـجـانـهـم أصـداء
والـنـار خـاوية الـجـوانـب حـولـهـم خَـمَـدَت ذوائـبـهـا وغـاض الـمـاء
والآي تـتـرى، والـخـوارق جـمـة جـبـريـل روّاح بـهـا غـدّاء[1].

وقد قال الشاعر الأديب الليبي الأستاذ محمد بشير المغيربي في ذكرى مولد الرسول ﷺ عام ١٩٤٧م في جريدة الوطن الصادرة في بنغازي:

بـلـغ الـزمـان مـن الـحـيـاة عـتـيـا لـكـنَّ يـومًـا لا يـزال فـتـيـا
يـمـشـي عـلـى الأحـقـاب مـشـي فـاتـح فـي مـوكـب جـعـل الـسـنـيـن مـطـيـا
تـحـدت لـه الأعـوام فـي أيـامـهـا عـرشـاً فـأصـبـح تـاجـهـا الأبـديـا
ومـضـت بـه الأجـيـال خـطـوات مـن بـلـغ الـرشـاد وكـان قـبـل صـبـيـا
أعـظـم بـيـوم جـاء يـحـمـل (رحـمـة لـلـعـالـمـيـن) وعـزة ورقـيـا
ولـدت بـه لـلـكـائـنـات حـقـيـقـة أضـحـى بـهـا سـر الـحـيـاة جـليـا
وأنـار فـي الأولـى الـطـريـق إلـى الـورى لـيـسـيـر لـلأخـرى الأنـام تـقـيـا
كـادت بـه الـدنـيـا تـقـول لـشـمـسـهـا عـنـي فـقـد رجـع الـضـيـاء إلـيـا

وقال أيضًا في نادي طرابلس الغرب الثقافي في القاهرة في عام ١٩٤٩م.

مـا لـي ومـا بـي مـن شـمـول أشـدو عـلـى رغـم الـعـذولْ
إنـي أطـالـع فـي الـسـمـاء كـأنـهـا سـفـر جـلـيـل
وأرى الـنـجـوم تـمـثـلـت لـي كـالـمـلائـك فـي مـثـول
والـبـدر خـلـت شـعـاعـه وحـي الـرسـالـة فـي نـزول
وإذا بـصـوت مـن ضـمـيـر الـكـون مـبـتـهـجًـا يـقـول
فـي مـثـل هـذي الـلـيـلـة الـغـراء قـد ولـد الـرسـول
وأشـع نـور مـحـمـد فـوق الـروابـي والـسـهـول
مـلأ الـزمـان وكـان قـبـل يـهـيـم فـي لـيـل طـويـل

رابعًا: مرضعاته عليه الصلاة والسلام:

* كانت حاضنته ﷺ أم أيمن بركة الحبشية أَمَة أبيه، وأول من أرضعته ثويبةُ أمةُ عمه

(١) انظر: ديوان شوقي (١/ ٣٤، ٣٥).

أبي لهب[١]. فمن حديث زينب ابنة أبي سلمة أنّ أمّ حبيبة ـ رضي الله عنها ـ أخبرتها أنها قالت: يا رسول الله، انْكِحْ أختي بنتَ أبي سفيان، فقال: «أو تحبين ذلك»؟ فقلت: نعم، لست لك بمخلية، وأحب من شاركني في خير أختي. فقال النبي ﷺ: «إنّ ذلك لا يحل لي». قلت: فإنا نُحَدَّثُ أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة، قال: «بنت أم سلمة»؟ قلت: نعم، فقال: «لو أنها لم تكن ربيبتي في حجري ما حلَّت لي، إنها لابنةُ أخي من الرضاعة، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة، فلا تَعْرِضنَ عليَّ بناتكن ولا أخواتكن»[٢].

وكان من شأن أم أيمن، أم أسامة بن زيد، أنها كانت وصيفة لعبد الله بن عبد المطلب، وكانت من الحبشة، فلما ولدت آمنة رسول الله ﷺ، بعد ما تُوفي أبوه، كانت أم أيمن تحضنه، حتى كَبِرَ رسول الله ﷺ، فأعتقها، ثم أنكحها زيد بن حارثة، ثم توفيت بعدما توفي رسول الله ﷺ بخمسة أشهر[٣].

* حليمة السعديّة مرضعته في بني سعد: وهذه حليمة السعدية تقص علينا خبرًا فريدًا عن بركات الحبيب المصطفى ﷺ التي لمستها في نفسها وولدها، ورعيها وبنتها.

عن عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «لما وُلد رسول الله ﷺ قدمت حليمة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر، يلتمسون الرضعاء بمكة، قالت حليمة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي، قمراء[٤] ومعي زوجي الحارث بن عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت[٥] أتاننا، ومعي بالركب شارف[٦] والله ما تَبِضُّ[٧] بقطرة لبن، في سنة شهباء[٨]، قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعي ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئًا أعلله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غنم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله ﷺ فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظئر، ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده، فكلُّ صواحبي أخذت رضيعًا، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه، وأخذته، والله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لآخذن هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى

---

(١) انظر: وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٤٨).

(٢) البخاري، كتاب النكاح، باب ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ رقم (٥١٠١).

(٣) مسلم، كتاب الجهاد، باب رد المهاجرين إلى الأنصار، رقم (١٧٧١).

(٤) قمراء: القُمرة لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة.

(٥) أدمت: حدثت في ركبها جروح دامية لاصطكاكها.

(٦) الشارف: الناقة المسنة.

(٧) تبض: لا ترشح قطرة لبن.

(٨) شهباء: سنة مجدبة لا خضرة فيها ولا مطر.

الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحبي ولا آخذ شيئًا، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرَّحْلَ، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرَّحْلَ، فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويت أخاه، قام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل[١]، فحلبها، فأرواني ورَوِي، فقال: يا حليمة، تعلمين والله لقد أصبنا نَسَمَة مباركة[٢]، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمنَّ، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعًا، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحبي، فركبت أتاني القمراء فحملته معي، فوالذي نفس حليمة بيده لقطعَتْ الركب[٣] حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت، فقلت: والله حملت عليها غلامًا مباركًا.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيرًا، حتى قدمنا والبلاد سَنة، ولقد كان رعاتنا يسرحون ثم يروحون، فتروح أغنام بني سعد جياعًا، وتروح غنمي بطانًا[٤]، حُفَّلاً[٥]، فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغنم حليمة تروح شباعًا حُفَّلاً، وتروح غنمكم جياعًا. ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياعًا كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شبابًا ما يَشبُّه أحدٌ من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبدًا ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: والله ما رأينا صبيًّا قطُّ أعظم بركة منه، وإنا نتخوف عليه وباء[٦] مكة وأسقامها، فدعيه نرع به حتى تبرئي من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهرًا ثلاثة أو أربعة، فبينما هو يلعب خلف البيوت هو وأخوه في بَهْم لنا[٧]، إذ أتى أخوه يشتدُّ، . . . فقال لي ولأبيه: إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذاه وأضجعاه، فشقّا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتدُّ، فوجدناه قائمًا، قد انتقع لونه[٨]، فلما رآنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضممناه إلينا: ما لك بأبي وأمي؟ فقال: «أتاني رجلان

---

(١) حافل: كثير اللبن.
(٢) نسمة: نفس.
(٣) قطعت الركب: سبقت الركب.
(٤) بطاناً: الممتلئة البطون.
(٥) حُفَّلاً: كثيرات اللبن.
(٦) الوباء: المرض.
(٧) البَهْم: صغار الضأن والماعز.
(٨) انتقع لونه: تغير.

وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعا به شيئًا، ثم رداه كما هو»، فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقي بأهله، فرديه إليك قبل أن يظهر له ما نتخوف منه. قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسلمكاه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاعة وسَرَّنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحبّ إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأناً فأخبراني ماهو، فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأناً، أفلا أخبركما خبره، إني حملت به، فوالله ما حملت حملاً قط كان أخف عليّ منه، ولا أيسر منه، ثم أُريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببُصْرى - أو قالت: قصور بُصرى - ثم وضعته حين وضعته، فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمدًا بيديه على الأرض رافعًا رأسه إلى السماء، فدعاه عنكما، فقبضته، وانطلقنا»[1].

١ - دروس وعبر:

أ - **بركة النبي ﷺ على السيدة حليمة**: فقد ظهرت هذه البركة على حليمة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدرار ثدييها، وغزارة حليبها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها، وقد كان كثير البكاء مزعجًا لأمه، يؤرقها ويمنعها من النوم، فإذا هو شبعان ساكن جعل أمه تنام وتستريح، وظهرت بركته في شياههم العجفاوات التي لا تدر شيئًا، وإذا بها تفيض من اللبن الكثير الذي لم يُعهد.

ب - **كانت هذه البركات** من أبرز مظاهر إكرام الله له، وليس فقط أن أكرم بسببه بيت حليمة السعدية التي تشرفت بإرضاعه. وليس من ذلك غرابة ولا عجب[2]، فخلف ذلك حكمة أن يُحب أهل هذا البيت هذا الطفل ويحنوا عليه، ويحسنوا في معاملته ورعايته وحضانته، وهكذا كان فقد كانوا أحرص عليه، وأرحم به من أولادهم[3].

جـ - **خيار الله للعبد أبرك وأفضل**: اختار الله لحليمة هذا الطفل اليتيم، وأخذته على مضض؛ لأنها لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وبانت نتائج هذا الاختيار مع بداية أخذه، وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره، والرضا به، ولا يندم على ما مضى، وما لم يقدره الله تعالى.

---

(١) مسند أبي يعلى (١٣/ ٩٣ ورقمه ٧١٦٣)، الطبراني في الكبير (٢٤/ ٢١٢ ورقمه ٥٤٥) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢١) وقال: رواه أبو يعلى والطبراني بنحوه ورجالهما ثقات، وأورده الذهبي (ص ٢١) في السيرة النبوية له، وقال: هذا حديث جيد الإسناد. وانظر السيرة النبوية بشرح الخشني: (١/ ٢١٤) من طريق ابن إسحاق وقد صرح ابن إسحاق بالسماع في رواية السيرة.

(٢) فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٤٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠٥).

د - **أثر البادية في صحة الأبدان وصفاء النفوس، وذكاء العقول**: قال الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدّى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة، من بيوت متلاصقة، كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق، والهواء المنعش.

ولا شك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود - فيما يعود - إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع، ونحن نقدر لأهل مكة اتجاههم إلى البادية لتكون عرصاتها الفساح مدارج طفولتهم. وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حتى تتسق مداركه مع حقائق الكون الذي وجد فيه، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق[١].

وتعلم رسول الله ﷺ في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح، وأصبح فيما بعد أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله ما رأيت أفصح منك. فقال ﷺ: «وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد»[٢].

٢ - ما يستفاد من حادثة شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام، أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة، ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل[٣].

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شق الصدر في صغره، فعن أنس بن مالك: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طسْت من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه[٤]، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعَون إلى أمه - يعني ظِئْرَهُ - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره»[٥]. ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشر، وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث

---

(١) انظر: فقه السيرة (ص ٦٠، ٦١).

(٢) الروض الأنف للسهيلي (١/١٨٨).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٧).

(٤) لأمه: جمعه وضم بعضه إلى بعض (شرح النووي على مسلم ٢/٢١٦).

(٥) مسلم، كتاب الإيمان، [١/ ٤٥ رقم ٢٦١ (١٦٢)].

صباه على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثمًا ولم يسجد لصنم[١]، رغم انتشار ذلك في قريش[٢].

وتحدث الدكتور البوطي عن الحكمة في ذلك فقال: يبدو أن الحكمة في ذلك إعلان أمر الرسول ﷺ وتهييؤه للعصمة والوحي، منذ صغره بوسائل مادية، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته. إنها إذن عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي، ليكون فيه ذلك الإعلان الإلٰهي بين أسماع الناس وأبصارهم[٣]، إن إخراج العلقة منه تطهير للرسول ﷺ من حالات الصبا اللاهية العابثة، المستهترة، واتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان، وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا على عناية الله به، وحفظه له، وأنه ليس للشيطان عليه سبيل[٤].

خامسًا: وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه:

توفيت أم النبي ﷺ وهو ابن ست سنين، بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار، تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة[٥] ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي ﷺ - فقد كان جده مهيبًا، لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان ﷺ يجلس على الفراش، ويحاول أعمامه أن يبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجد بجانبه، ويرضى أن يبقى جالسًا على فراشه، متوسمًا فيه الخير، وأنه يكون له شأن عظيم[٦]، وكان جده يحبه حبًّا عظيمًا، وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها، وذات يوم أرسله في طلب إبل فاحتبس عليه[٧] فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رب رد راكبي محمدا ... رده لي واصنع عندي يدا

فلما رجع النبي ﷺ وجاء بالإبل فقال له: يا بني، لقد حزنت عليك كالمرأة حزنًا لا يفارقني أبدًا[٨].

---

(١) زعم المستشرق نيكلسون أن حديث شق الصدر أسطورة نشأت عن تفسير الآية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾، وأنه لو كان لها أصل، فعلينا أن نخمن أنها تشير إلى نوع من الصرع، وهذا الذي تَخَبَّط فيه نيكلسون سبقه إليه المشركون حين اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون فنفى الله عنه ذلك ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ②٢﴾ [التكوير: ٢٢]..

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٠٤).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٧).

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠٦، ١٠٧).

(٥) ابن هشام في السيرة (١/ ٦٨) وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث.

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠١).

(٧) (٨) صحيح السيرة النبوية للعلي (ص ٥٦) وقال: أخرجه الحاكم: (٢/ ٦٠٣، ٦٠٤) وصححه ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٢٢٤): رواه أبو يعلى والطبراني وإسناده حسن.

ثم توفي عبد المطلب والنبي ﷺ في الثامنة من عمره[١]، فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه وحنّ عليه ورعاه[٢].

أرادت حكمة الله أن ينشأ رسوله يتيمًا، تتولاه عناية الله وحدها، بعيدًا عن الذراع التي تمعن في تدليله، والمال الذي يزيد في تنعيمه، حتى لا تميل به نفسه إلى مجد المال والجاه، وحتى لا يتأثر بما حوله من معنى الصدارة والزعامة، فيلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا، وحتى لا يحسبوه يصطنع الأول ابتغاء الوصول إلى الثاني[٣]، وكانت المصائب التي أصابت النبي ﷺ منذ طفولته كموت أمه، ثم جده بعد أن حرم عطف الأب، وذاق كأس الحزن مرة بعد مرة، كانت تلك المحن قد جعلته رقيق القلب، مرهف الشعور، فالأحزان تصهر النفوس وتخلصها من أدران القسوة والكبْر والغرور، وتجعلها أكثر رقة وتواضعًا.

سادسًا: عمله ﷺ في الرعي:

كان أبو طالب مُقِلاً في الرزق، فعمل النبي ﷺ برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة، وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة، وهو غلام، وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا إلا رَعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[٤] إن رعي الغنم كان يتيح للنبي ﷺ الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل، وظلال القمر، ونسمات الأسحار، يتيح له لونًا من التربية النفسية، من الصبر والحلم، والأناة والرأفة، والرحمة والعناية بالضعيف، حتى يقوى، وزم قوى القوى[٥] حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري، وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها، وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف[٦].

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات[٧]، فكان

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٠١).

(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. اليحيى (ص ١١٩).

(٣) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٤٦).

(٤) البخاري، كتاب الإجارة، باب ـ رعي الغنم على قراريط (رقم ٢٢٦٢). والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم.

(٥) كذا جاءت هذه الكلمات، ولم أتبين معناها ـ «المراجع».

(٦) انظر: محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون (١/ ١٧٧).

(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٠٦).

رعي الغنم للنبي ﷺ دربة ومرانًا له على سياسة الأمم.

ورعي الغنم يتيح لصاحبه عدة خصال تربوية منها:

١ - **الصبر**: على الرعي من طلوع الشمس إلى غروبها، نظرًا لبطءِ الغنم في الأكل، فيحتاج راعيها إلى الصبر والتحمل، وكذا تربية البشر[١].

إن الراعي لا يعيش في قصر منيف، ولا في ترف وسرف، وإنما يعيش في جو حار شديد الحرارة، وبخاصة في الجزيرة العربية، ويحتاج إلى الماء الغزير ليذهب ظمأه، وهو لا يجد إلا الخشونة في الطعام وشظف العيش، فينبغي أن يحمل نفسه على تحمل هذه الظروف القاسية، ويألفها ويصبر عليها[٢].

٢ - **التواضع**: إذ طبيعة عمل الراعي خدمة الغنم، والإشراف على ولادتها، والقيام بحراستها، والنوم بالقرب منها، وربما أصابه ما أصابه من رذاذ بولها، أو شيء من روثها، فلم يتضجر من هذا، ومع المداومة والاستمرار يبعد عن نفسه الكبر والكبرياء، ويرتكز في نفسه خلق التواضع[٣]. وقد ورد في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَر الحق وغَمْط الناس»[٤].

٣ - **الشجاعة**: فطبيعة عمل الراعي الاصطدام بالوحوش المفترسة، فلا بد أن يكون على جانب كبير من الشجاعة، تؤهله للقضاء على الوحوش ومنعها من افتراس أغنامه[٥].

٤ - **الرحمة والعطف**: إن الراعي يقوم بمقتضى عمله في مساعدة الغنم إن هي مرضت، أو كُسرت أو أصيبت، وتدعو حالة مرضها وألمها إلى العطف عليها، وعلاجها والتخفيف من آلامها، فمن يرحم الحيوان يكون أشد رحمة بالإنسان، وبخاصة إذا كان رسولًا أرسله الله تبارك وتعالى لتعليم الإنسان، وإرشاده وإنقاذه من النار، وإسعاده في الدارين[٦].

٥ - **حب الكسب من عرق الجبين**: إن الله قادر على أن يغني محمدًا ﷺ عن رعي الغنم، ولكن هذه تربية له ولأمته للأكل من كسب اليد، وعرق الجبين، ورعي الغنم نوع من أنواع الكسب باليد.

---

(١) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. اليحيى (ص ١٢٤).
(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١١٤، ١١٥).
(٣) المصدر السابق (ص١١٤).
(٤) مسلم [رقم ١٤٧ - (٩١)].
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١١٤).
(٦) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص ١٢٧).

روى البخاري عن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[١].

ولا شك أن الاعتماد على الكسب الحلال يكسب الإنسان الحرية التامة، والقدرة على قول كلمة الحق والصدع بها[٢]، وكم من الناس يطأطئون رؤوسهم للطغاة، ويسكتون على باطلهم، ويجارونهم في أهوائهم خوفًا على وظائفهم عندهم[٣].

إن إقبال النبي ﷺ على رعي الأغنام لقصد كسب القوت والرزق، يشير إلى دلائل هامة في شخصيته المباركة، منها الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمّل الله تعالى بهما نبيه ﷺ. لقد كان عمّه يحوطه بالعناية التامة، وكان له في الحنّو والشفقة كالأب الشفوق، ولكنه ﷺ ما إن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب، ويتعب نفسه لمساعدة عمه في مؤونة الإنفاق، وهذا يدل على شهامة في الطبع، وبرّ في المعاملة، وبذل للوسع[٤]. والدلالة الثانية تتعلق ببيان نوع الحياة التي يرتضيها الله تعالى لعباده الصالحين في دار الدنيا، لقد كان سهلاً على الله أن يهيىء للنبي ﷺ وهو في صدر حياته من أسباب الرفاهية، ووسائل العيش ما يغنيه عن الكدح، ورعاية الأغنام سعيًا وراء الرزق.

ولكن الحكمة الربانية تقتضي منا أن نعلم أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بكدّ يمينه، ولقاء ما يقدمه من الخدمة لمجتمعه وبني جنسه[٥].

سابعًا: حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة:

إن الله تعالى صان نبيه ﷺ عن شرك الجاهلية، وعبادة الأصنام، روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جارٌ لخديجة أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «أيْ خديجة والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العُزَّى أبداً»[٦]، وكان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل[٧].

«وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البريئة، التي تنزع إليها الشبوبية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين»[٨]، فعن علي بن أبي

---

(١) البخاري، كتاب البيوع (رقم ٢٠٧٢).
(٢) انظر: مدخل لفهم السيرة (ص ١٢٨).
(٣) انظر: فقه السيرة للغضبان (ص ٩٣).
(٤) انظر: فقه السيرة للبوطي (ص ٥٠).
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المسند ورقمه (١٧٩٤٧) وقال محققو طبعة مؤسسة الرسالة: إسناده صحيح، وانظر: وقفات تربوية، أحمد فريد (ص ٥١).
(٧) انظر: وقفات تربوية، أحمد فريد (ص ٥١).
(٨) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (١/ ١٩٣).

طالب ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يَهِمُّون به، إلا مرتين من الدهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إلى غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء، وضرب دفوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت، فقال: مافعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئا» قال رسول الله ﷺ: «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته»[١].

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين، كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

١ - إن النبي ﷺ كان متمتعًا بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميول الفطرية، التي اقتضت حكم الله أن يجبل الناس عليها، فكان يحس بمعنى السمر، واللهو، ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

٢ - أن الله ﷻ قد عصمه مع ذلك من جميع مظاهر الانحراف، ومن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها[٢].

ثامنًا: لقاء الراهب بَحِيرا بالرسول وهو غلام:

«خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا[٣] على الراهب[٤]، هبطوا فحلوا رحالهم[٥]، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم، ولا يلتفت.

قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب[٦] حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من

---

(١) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٥٧).

(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٥٠، ٥١).

(٣) أشرفوا: اطلعوا.

(٤) الراهب: زاهد النصارى.

(٥) حلوا رحالهم: أي أنزلوها وفتحوها.

(٦) يتخللهم: يمشي بينهم.

قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرّ[١] ساجدًا، ولا يسجدان إلا لنبيّ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف[٢] كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعامًا، فلما أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل[٣]، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة[٤] تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة[٥] عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم[٦] أن لا يذهبوا به إلى الروم؛ فإن الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خيره لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمرًا أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه[٧]؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب»[٨].

ومما يستفاد من قصة بحيرا عدة أمور منها:

١ - إن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن محمدًا - ﷺ - هو الرسول للبشرية، وعرفوا ذلك لما وجدوه من أمارات وأوصاف عنه في كتبهم.

٢ - إثبات سجود الشجر والحجر للنبي ﷺ وتظليل الغمام له، وميل فيء الشجرة عليه.

٣ - إن النبي ﷺ استفاد من سفره وتجواله مع عمه، وبخاصة من أشياخ قريش، حيث اطلع على تجارب الآخرين وخبرتهم والاستفادة من آرائهم، فهم أصحاب خبرة، ودراية، وتجربة لم يمر بها النبي ﷺ في سنه تلك.

٤ - حذر بَحِيرا من النصارى، وناشد عمه وأشياخ مكة ألا يذهبوا به إلى الروم؛ فإن الروم إذا عرفوه بالصفة يقتلونه، لقد كان الرومان على علم بأن مجيء هذا الرسول سيقضي على نفوذهم الاستعماري في المنطقة، ومن ثم فهو العدو الذي سيقضي على مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرومان.

---

(١) خر: سقط.
(٢) الغضروف: رأس لوح الكتف.
(٣) رعية الإبل: رعايتها.
(٤) غمامة: السحابة.
(٥) مال فيء الشجرة عليه: مال ظلها.
(٦) يناشدهم: يقسم عليهم.
(٧) أيكم وليه: قريبه.
(٨) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٥٨، ٥٩) وما جاء في هامشها عنه.

تاسعًا: حرب الفِجار:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين هوازن، وسببها أن عروة الرحّال بن عتبة بن هوازن أجار لطيمة[١] للنعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق، فخرج بها عروة، وخرج البراض يطلب غفلته حتى قتله، وعلمت بذلك كنانة، فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم، ثم بلغهم الخبر، فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا، وعاونت قريش كنانة[٢]، وشهد محمد ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم.

وسميت يوم الفِجار بسبب ما استحل فيه من حرمات مكة، التي كانت مقدسة عند العرب[٣].

وقد قال ﷺ عن تلك الحرب: «كنت أُنبِّل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها»[٤].

وكان ﷺ حينئذٍ ابن أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، وقيل ابن عشرين، ويرجح الأول أنه كان يجمع النبال، ويناولها لأعمامه، مما يدل على حداثة سنه.

وبذلك اكتسب الجرأة والشجاعة، والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت هذه الحرب التي كثيرًا ما تشبه حروب العرب...، حتى ألف الله بين قلوبهم، وأزاح عنهم هذه الضلالات بانتشار نور الإسلام بينهم[٥].

عاشرًا: حلف الفُضُول:

كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلاً من زَبيد[٦] قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الدار والنفر

---

(١) اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والبز والتجارة.

(٢) قريش فرع من كنانة.

(٣) وقفات تربوية مع السيرة النبوية (ص ٥٣).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٢٢١ـ ٢٢٤) السيرة الحلبية (١/ ١٢٧ـ ١٢٩).

(٥) انظر: وقفات تربوية (ص ٥٣).

(٦) زبيد: بلد باليمن.

ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحَجَر
إن الحرام لم تمت كرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغُدَر[١]

فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جُدْعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله، ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم، حتى يُرد إليه حقه ما بلّ بحرٌ صوفةً، ومابقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما[٢].

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

وسمَّت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قال الزبير بن عبد المطلب:

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاقدوا وتواثقوا فالجار والمُعْتَرّ[٣] فيهم سالم

وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب، وعرفانهم لحقوق الإنسان[٤]. وقد قال ﷺ: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حُمْر النَّعم، وأني أنكثه»[٥].

وقال ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمْر النَّعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[٦].

* دروس وعبر وفوائد:

١ - إن العدل قيمة مطلقة وليست نسبية، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبدأ العدل، قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية[٧].

٢ - كان حلف الفضول واحة في ظلال الجاهلية، وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام

---

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (١/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢١٣)، مابلَّ بَحْرٌ صُوفَةً، ومابقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما: كناية عن التأييد والاستمرار.

(٣) المعترّ: الزائر من غير البلاد.

(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢١٤).

(٥) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي، (ص٥٩) وذكر تصحيح الهيثمي له في المجمع، وتصحيح الساعاتي له في الفتح الرباني.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤) فقه السيرة للغضبان، (ص ١٠٢).

(٧) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٢).

أو مجتمع، لا يعني خلوه من أي فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي هيمنت عليه عبادة الأوثان، والمظالم والأخلاق الذميمة، كالظلم والزنا والربا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوة ومروءة، يكرهون الظلم ولا يقرونه، وفي هذا درس عظيم للدعاة في مجتمعاتهم التي لا تحكم الإسلام، أو تحارب الإسلام[١].

٣ - إن الظلم مرفوض بأي صورة؛ ولو وقع الظلم على أقل الناس[٢]. إن الإسلام يحارب الظلم، ويقف بجانب المظلوم، دون النظر إلى لونه ودينه، ووطنه وجنسه[٣].

٤ - جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير، وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]، ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هذا الحال، لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعًا، على ألا يكون ذلك شبيهًا بمسجد الضرار، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين، ظلماً وبغياً، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلحظ في ذلك مصلحة الإسلام والمسلمين، في الحاضر والمستقبل، وفي هذا الحديث دليل[٤]، والدليل فيه قوله ﷺ: «ما أحب أن لي به حُمْر النَّعم»[٥] لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكث به مقابل حمر النعم، وقوله ﷺ: «ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»[٦] طالما أنه يردع الظالم عن ظلمه، وقد بَيَّن ﷺ استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[٧].

٥ - وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابيًا فاعلاً، لا أن يكون رقمًا من الأرقام، على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي ﷺ محط أنظار مجتمعه، وصار مضرب المثل فيهم، حتى لقبوه بالأمين، وتهفو إليه قلوب الناس، الموافق والمخالف على السواء، بسبب الخلق الكريم الذين حبا الله تعالى به نبيه ﷺ، ومازال يزكو وينمو حتى تعلقت به قلوب قومه، وهذا يعطينا صورة حية عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخلق، ولو في المجتمع المنحرف[٨].

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان (ص ١١٠).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢١).
(٤) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية (١/ ١٧١، ١٧٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٣٤).
(٦) المصدر نفسه.
(٧) انظر: الأساس في السنة (١/ ١٧٢).
(٨) انظر: فقه السيرة للغضبان (ص ١١٠، ١١١).

المبحث السادس

تجارته لخديجة وزواجه منها، وأهم الأحداث إلى البعثة

أولاً: تجارته لخديجة رضي الله عنها وزواجه منها:

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة[١] ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمد ﷺ صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدما الشام، وباع محمد ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل محمد ﷺ في هذ الرحلة على فوائد عظيمة، بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزًا لدعوته، وبالبلاد التي فتحها، ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سببًا لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته، وصدقه وكريم أخلاقه[٢]، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا، وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة[٣]، فرضي بذلك وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه، وتزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها عشرين بَكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها [٤]، وقد ولدت لرسول الله ﷺ غلامين وأربع بنات. وابناه هما:

- القاسم، وبه كان ﷺ يكنى.
- وعبد الله، ويلقب الطاهر والطيب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنًّا تمكنه من ركوب الدابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة، أما بناته فهن: زينب، ورقية، وأم كُلثوم، وفاطمة. وقد أسلمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن[٥]. هذا وقد كان عمر الرسول ﷺ حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمسًا وعشرين سنة، وكان عمرها أربعين سنة[٦].

---

(١) تزوجها عتيق بن عائذ ثم مات عنها، فتزوجها أبو هالة ومات عنها أيضًا.
(٢) انظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٧).
(٣) انظر: مواقف تربوية (ص ٥٦).
(٤) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٢).
(٥) انظر: رسالة الأنبياء (٣/ ٢٨).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٢).

*** دروس وعبر وفوائد:**

١ - إن الأمانة والصدق صفات التاجر الناجح، وصفة الأمانة والصدق في التجارة في شخصية النبي ﷺ، هي التي رغبت السيدة خديجة في أن تعطيه مالها ليتاجر به، ويسافر به إلى الشام، فبارك الله لها في تجارتها، وفتح الله لها من أبواب الخير ما يليق بكرم الكريم.

٢ - إن التجارة مورد من موارد الرزق التي سخرها الله لرسوله ﷺ، قبل البعثة، وقد تدرب النبي ﷺ على فنونها، وقد بين النبي ﷺ: أن التاجر الصدوق الأمين في هذا الدين يُحشر مع الصديقين والشهداء والنبيين، وهذه المهنة مهمة للمسلمين، ولا يقع صاحبها تحت إرادة الآخرين، واستعبادهم، وقهرهم، وإذلالهم فهو ليس بحاجة إليهم، بل هم في حاجة إليه وبحاجة إلى خبرته وأمانته وعفته.

٣ - كان زواج الحبيب المصطفى من السيدة خديجة بتقدير الله تعالى، ولقد اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه زوجة تناسبه، وتؤازره، وتُخفف عنه ما يصيبه، وتعينه على حمل تكاليف الرسالة وتعيش همومه[١].

قال الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله -: وخديجة مثل طيب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غَبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى من يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سباقة إلى هذه الخصال، وكان لها في حياة محمد ﷺ أثر كريم[٢].

٤ - نرى أن النبي ﷺ ذاق مرارة فقد الأبناء، كما ذاق من قبل مرارة فقد الأبوين، وقد شاء الله - وله الحكمة البالغة - أن لا يعيش له ﷺ أحد من الذكور، حتى لا يكون مدعاة لافتتان بعض الناس بهم، وادّعائهم لهم النبوة، فأعطاه الذكور تكميلاً لفطرته البشرية، وقضاء لحاجات النفس الإنسانية، ولئلا يتنقَّص النبي في كمال رجولته شانىء، أو يتقوّل عليه متقول، ثم أخذهم في الصغر، وأيضًا ليكون ذلك عزاء وسلوى للذين لا يُرزقون البنين، أو يُرزقون ثم يموتون، كما أنه لون من ألوان الابتلاء، وأشد الناس بلاءً الأنبياء[٣]، وكأن الله أراد للنبي ﷺ أن يجعل الرقة الحزينة جزءًا من كيانه؛ فإن الرجال الذين يسوسون الشعوب لا يجنحون إلى الجبروت، إلا إذا كانت نفوسهم قد طبعت على القسوة والأثرة، وعاشت في أفراح لا يخامرها كدر، أما الرجل الذي خبر الآلام، فهو أسرع الناس إلى مواساة المحزونين، ومداواة المجروحين[٤].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٧٥).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٤) انظر: فقه السيرة، للغزالي (ص ٧٨).

٥ - يتضح للمسلم من خلال قصة زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة، عدم اهتمام النبي ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتمًا بذلك كبقية الشباب، لطمع بمن هي أقل منه سنًّا، أو بمن لا تفوقه في العمر، وإنما رغب النبي ﷺ لشرفها ومكانتها في قومها، فقد كانت تلقب في الجاهلية بالعفيفة الطاهرة.

٦ - وفي زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة وأقلام الحاقدين على الإسلام وقوة سلطانه، من المستشرقين وعبيدهم العَلمانيين، الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام، وصوّروا النبي ﷺ في صورة الرجل الشهواني الغارق في ذاته وشهواته، فنجد أن النبي ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيف النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله، وإن من حوله الكثير، وله إلى ذلك أكثر من سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائمًا حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا، وقد ناهز النبي عليه الصلاة والسلام الخمسين من العمر، دون أن يفكر خلالها في الزواج بأي امرأة أخرى، وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هو الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الفترة في أن يضم إلى خديجة مثلها من النساء: زوجة أو أمة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرها من أمهات المؤمنين، فإن لكل منهن قصة، ولكل زواج حكمة، وسبباً، يزيدان في إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه[1].

ثانيًا: اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة:

لما بلغ محمد ﷺ خمسًا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة، لما أصابها من حريق وسيل جارف صدع جدرانها. وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضماً[2] فوق القامة، فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها، ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللَّهم لم نزغ، ما نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الركنين: فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم

---

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٥٣، ٥٤).

(٢) الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.

منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غاديًا يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خُضْر كالأسنمة[١] آخذ بعضها ببعض.

وكانوا قد جزؤوا العمل، وخصوا كل قبيلة بناحية، واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي ﷺ، وعمه العباس في بناء الكعبة، وكانا ينقلان الحجارة. فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض[٢]، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري»، فشد عليه إزاره[٣]، فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد. فلما توافقوا على ذلك، دخل محمد ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا، فلما أخبروه الخبر؛ قال: «هلموا ثوبًا». فأتوه به. فوضع الركن فيه بيديه ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا». فرفعوه، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثماني عشرة ذراعًا، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا، وليمنعوا الماء من التسرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشًا قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجْر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا دلالة على أنه منها، لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بَغِيٍّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد[٤].

* دروس وعبر وفوائد:

١ - بنيت الكعبة خلال الدهر كله أربع مرات على يقين:

فأما المرة الأولى منها: فهي التي قام بأمر البناء فيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يعينه ابنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام.

والثانية: فهي تلك التي بنتها قريش قبل البعثة واشترك في بنائها النبي ﷺ.

والثالثة: عندما احترق البيت من رميه بالمنجنيق في زمن يزيد بن معاوية بفعل الحصار، الذي ضربه الحصين السكوني، على ابن الزبير حتى يستسلم، فأعاد ابن الزبير بناءها.

---

(١) جمع سنام وهو أعلى ظهر البعير.

(٢) ففعل ذلك فوقع.

(٣) رواه البخاري، كتاب الحج (رقم ١٥٨٢).

(٤) انظر: وقفات تربوية (ص ٥٧)، وانظر: رسالة الأنبياء، عمر أحمد عمر (٣/ ٢٩، ٣٠).

وأما المرة الرابعة: في زمن عبد الملك بن مروان بعدما قتل ابن الزبير، حيث أعاده على ما كان عليه زمن النبي ﷺ[١]؛ لأن ابن الزبير باشر في رفع بناء البيت وزاد فيه الأذرع الست التي أخرجت منه، وزاد في طوله إلى السماء عشر أذرع، وجعل له بابين، أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه، وإنّما جرّأه على إدخال هذه الزيادة حديث عائشة عن رسول الله ﷺ: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثُ عهد بجاهلية لأمرت بالبيت، فَهدِم فأدخلتُ فيه ما أُخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين، بابًا شرقيًا، وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم»[٢].

٢ - أمانة رسول الله ﷺ هي الخلق الذي جَنّب قريشاً كارثة القتال في الحرم، فقد ارتضاه الجميع، وارتضوا ما فعله إذ هو الأمين الذي لا يظلم، وهو الأمين الذي لا يحابي، ولا يفسد، وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء[٣].

٣ - إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي ﷺ الأدبية في الوسط القرشي[٤]، وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان، شرف فصل الخصومة ووقف القتال المتوقع بين قبائل قريش، وشرف تنافس عليه القوم وادّخره الله لنبيه ﷺ، ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه في مكانه من البيت[٥].

٤ - إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي، وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله ﷺ، كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات، بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما تراه في حياته كلها ﷺ، وذلك مَعلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله[٦].

ثالثًا: تهيئة الناس لاستقبال نبوّة محمد ﷺ:

١ ـ بشارات الأنبياء بمحمد ﷺ

شاءت حكمة الله تعالى أن يعد الناس لاستقبال نبوة محمد ﷺ بأمور منها:

دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في العرب رسولاً منهم، فأرسل محمدًا إجابة لدعوته، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٢٩] وذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل البشارة بمبعث

(١) السيرة النبوية للبوطي (ص ٥٧، ٥٨)، وصحيح مسلم [٤٠٢ (١٣٣٣)].
(٢) البخاري، كتاب الحج (رقم ١٥٨٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٥).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ١٢٥، ١٢٦).
(٦) انظر: الأساس في السنة وفقهها ـ السيرة النبوية (١/ ١٧٥).

محمد ﷺ في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء السابقين، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: الآية ١٥٧].

وبشر به عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصَّف: الآية ٦].

وأعلم الله تعالى جميعَ الأنبياء ببعثته، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به، واتِّباعه إن هم أدركوه[١]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ٨١].

وقد وقع التحريف في نسخ التوراة والإنجيل، وحذف منهما التصريح باسم محمد ﷺ إلا توراة السامرة، وإنجيل (برنابا)، الذي كان موجودًا قبل الإسلام، وحرّمت الكنيسة تداوله في آخر القرن الخامس الميلادي، وقد أيدته المخطوطات التي عثر عليها في منطقة البحر الميت حديثًا، فقد جاء في إنجيل (برنابا) العبارات المصرحة باسم النبي محمد ﷺ مثل ما جاء في الإصحاح الحادي والأربعين منه، ونص العبارة: «٢٩ فاحتجب الله وطردهما الملاك ميخائيل من الفردوس ٣٠ فلما التفت آدم رأى مكتوبًا فوق الباب: لا إله إلا الله محمد رسول الله»[٢].

قال ابن تيمية: «والأخبار بمعرفة أهل الكتاب بصفة محمد ﷺ عندهم في الكتب المتقدمة متواترة عنهم» ثم قال: «ثم العلم بأن الأنبياء قبله بَشَّروا به يعلم من وجوه.

أحدها: ما في الكتب الموجودة اليوم بأيدي أهل الكتاب.

الثاني: إخبار من وقف على تلك الكتب، ممن أسلم وممن لم يسلم، بما وجدوه من ذكره بها. وهذا مثل ما تواتر عن الأنصار، أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعثه، وأنه رسول الله، وأنه موجود عندهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لما دعاهم إلى الإسلام حتى آمن الأنصار به وبايعوه[٣].

فمن حديث سَلَمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وكان من أصحاب بدر، قال: «كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل، قال: فخرج علينا يومًا من بيته قبل مبعث النبي ﷺ بيسير،

---

(١) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ (ص ١٠١، ١٠٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١١٨).

(٣) انظر: الجواب الصحيح لابن تيمية (١/ ٣٤٠).

فوقف على مجلس عبد الأشهل، قال سلمة: وأنا يومئذٍ من أحدث مَنْ فيه سنًّا، عليَّ بردة مضطجعًا فيها بفناء أهلي، فذكر البعث والقيامة والحساب والميزان والجنة والنار، فقال ذلك لقومٍ وكانوا أهل شرك وأصحاب أوثان، لا يرون أن بعثًا كائن بعد الموت.

فقالوا له: ويحك يافلان، ترى هذا كائنًا أن الناس يُبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار، ويُجزون فيها بأعمالهم؟ قال: نعم، والذي يُحلف به، وَلَوَدَّ أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور[١] في الدنيا يحمونه، ثم يدخلونه إياه، فيطبق به عليه[٢]، وأن ينجو من تلك النار غدًا.

قالوا له: ويحك، وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن.

قالوا: ومتى نراه؟ قال: فنظر إليّ ـ وأنا من أحدثهم سنًا ـ فقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه.

قال سلمة: «فوالله ماذهب الليل والنهار، حتى بعث الله تعالى رسوله ﷺ، وهو حيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكَفَر به بغيًا وحسدًا، فقلنا: ويلك يافلان، ألست بالذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، وليس به»[٣].

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله: «قد رأيت أنا من نسخ الزبور مافيه تصريح بنبوة محمد ﷺ باسمه، ورأيت نسخة أخرى من الزبور فلم أر ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبي ﷺ ماليس في أخرى»[٤].

وقد ذكر عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: «... والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا) وحرزًا للأميين[٥]، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق[٦]، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء[٧] بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويَفْتَحَ بها أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا)»[٨].

---

(١) التنور: الفرن.

(٢) يطبق عليه: يغلق عليه.

(٣) صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلي (ص ٣١).

(٤) الجواب الصحيح (١/ ٣٤٠).

(٥) حرزًا للأميين: حفاظًا لهم.

(٦) السخاب: رافع الصوت بالخصام.

(٧) العوجاء: ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها.

(٨) البخاري، كتاب البيوع (رقم ٢١٢٥) وهذا لفظ كتاب البيوع، وأخرجه أيضًا في كتاب التفسير ـ برقم (٤٨٣٨).

ومن حديث كعب الأحبار، قال: «إني أجد في التوراة مكتوبًا: محمد رسول الله، لا فظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يجزي السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، أمته الحمادون، يحمدون الله في كل منزلة، ويكبّرونه على كل نجد، يأتزرون إلى أنصافهم، ويوضئون أطرافهم، صَفُّهم في الصلاة، وصفُّهم في القتال سواء، مناديهم ينادي في جو السماء، لهم في جوف الليل دوي كدوي النحل، مولده بمكة، ومهجره بطابة، وملكه بالشام»[١].

٢ ـ بشارات علماء أهل الكتاب بنبوته:

أخبر سلمان الفارسي رضي الله عنه في قصة إسلامه المشهورة، عن راهب عمورية حين حضرته المنية، قال لسلمان: «إنه قد أظل زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم، يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حَرَّتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل»[٢].

ثم قصّ سلمان خبر قدومه إلى المدينة واسترقاقه، ولقائه برسول الله ﷺ حين الهجرة، وإهدائه له طعامًا على أنه صدقة، فلم يأكل منه الرسول، ثم إهدائه له طعامًا على أنه هدية، وأكله منه، ثم رؤيته خاتم النبوة بين كتفيه، وإسلامه على أثر ذلك[٣].

ومن ذلك إخبار أحبار اليهود ورجالاتها بقرب مبعثه عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك قصة أبي التيهان الذي خرج من بلاد الشام، ونزل في بني قريظة ثم توفي قبل البعثة النبوية بسنتين، فإنه لما حضرته الوفاة قال لبني قريظة: يا معشر يهود، ما ترونه أخرجني من أرض الخَمْر والخَمير ـ الشام ـ إلى أرض البؤس والجوع ـ يعني: الحجاز ـ؟ قالوا: أنت أعلم، قال: إني قدمت هذه البلدة أتوكَّفُ ـ أنتظر ـ خروج نبي قد أظلَّ زمانه، وكنت أرجو أن يبعث فأتبعه.

وقد شاع حديث ذلك، وانتشر بين اليهود وغيرهم، حتى بلغ درجة القطع عندهم، وبناء عليه كان اليهود يقولون لأهل المدينة المنورة: إنه قد تقارب زمان نبي يُبْعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم[٤]، وكان ذلك الحديث سببًا في إسلام رجال من الأنصار، وقد قالوا: «إن مما دعانا إلى الإسلام، مع رحمة الله تعالى وهداه، لما كنا نسمع من رجال اليهود، كنا أهل شرك، أصحاب أوثان، وكانوا أهل كتاب، عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: إنه تقارب زمان نبي يبعث الآن، نقتلكم معه قتل عادٍ وإرَم»[٥].

---

(١) صحيح السيرة النبوية (ص ٣٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٣٠٠).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة للعمري (١/ ١٢٢).

(٤) انظر: دراسة تحليلية، د. محمد قلعجي (ص ١٠٧).

(٥) ابن هشام بإسناد حسن (١/ ٢٣١).

وقد قال هرقل ملك الروم عندما استلم رسالة النبي ﷺ: «وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم»[١].

٣ ـ الحالة العامة التي وصل إليها الناس:

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: «كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون من أفراد الناس، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون، والمعلمون الذين لم يَخْلُ منهم عصر ولا مصر.

«ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنيان، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: الآية ١٢٢].

«قضية اقتلاع جرثومة الفساد، واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق النفس الإنسانية، ترسيخًا لا يتصور فوقه، وغرس ميل إلى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، يتغلب على كل رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف كل مقاومة، وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة، التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة، يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنة الخلد، التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قوله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمد ﷺ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣][٢]».

٤ ـ إرهاصات نبوته ﷺ:

ومن إرهاصات نبوته ﷺ تسليم الحجر عليه قبل النبوة، فعن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه قال:

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ١٤٦).

(٢) السيرة النبوية، للندوي (ص ٥٨، ٥٩)، ونقلها عنه صاحب الأساس في السنة (١/ ١٨٠، ١٨١).

رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»[١]، ومنها الرؤيا الصادقة، وهي أول ما بدىء به من الوحي، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[٢]، وحبب إليه ﷺ العزلة والتحنث (التعبد)، فكان يخلو في غار حراء ـ وهو جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة ـ ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، فتارة عشرة، وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً، حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[٣].

(١) مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (رقم ٢٢٧٧).

(٢) البخاري، كتاب بدء الوحي (رقم ٣).

(٣) انظر: فقه السيرة النبوية للبوطي (ص ٦٠).